7

رجال حول محمد علي!!

من الخطأ تاريخياً وموضوعياً أن نُسند نجاح أو حتى فشل أية تجربة تاريخية للقائم عليها وحده.. فالتاريخ يقول أن التجارب يتقاسمها أشخاص متعددون.. أياً كانت التجربة.. وأياً كان شخصية القائم عليها.. حتى في الرسالات السماوية كان رب العزة دوماً يقيض لأنبيائه بشراً وأُناساً عاديين ليعضدوهم.. ويؤازروهم.. ومن هؤلاء تتكون ملامح التجربة.. وأحياناً كانت أدوارهم لا تقل أهمية - بل ربما تزيد - عن أصحاب التجربة أنفسهم.. وإذا ضربنا مثلاً بـ «كارل ماركس»[1] وهو واحد من أهم الفلاسفة المؤثرين في الحضارة الإنسانية في التاريخ المعاصر.. فسنقول أنه لو لم يكن بجواره «فريدريك إنجلز» لما حققت تجربته كل هذا الأثر العالمي المعروف.

ونعود لـ «محمد علي» لنقرأ تجربته من خلال من أحاط به من رجال.. نتعرف عليهم أولاً.. ثم نعرف مدى أثرهم في نجاح تجربته.. ومدى تأثرهم بها.. ونبدأ بأقرب المقربين إليه .. وهو..

(١) كارل ماركس «٥ مايو ١٨١٨» فيلسوف ألماني.. وصحفي ومنظر سياسي واجتماعي.. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية هو ما أكسبه شهرة عالمية.. وهو مؤسس للفلسفة التي ارتبطت باسمه «الماركسية».. ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي.. شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجلز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية.. أو «الشيوعية المعاصرة» وقد وُلِدَ ماركس بمدينة «تريير» في ولاية «رينانيا» الألمانية سنة ١٨١٨ والتحق بجامعة بون عام ١٨٣٣ لدراسة القانون.. ثم أظهر اهتماماً بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد له أن يصبح محامياً.. حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٤٠ وعُرِفَ عنه أنه كان دائم النشاط لا يكل.. ولا ينام إلا أربع ساعات فقط في اليوم.. وتوفي في ١٤ مارس ١٨٨٣.

DAYS OF MOHAMED ALI

ماتيو دى ليسبس

دي ليسبس الابن

عام١٨٠٣ أوفد نابليون ماتيو ديليسبس والد فرديناندديليسبس[1] كمبعوثٍ شخصيٍ له إلى مصر.. وكان دي ليسبس ينتمي لأسرة عريقة عمل أكثر أفرادها بالدبلوماسية واشتهرت بمواقفها المؤيدة لنابليون..

وفي مصر تمكن ماتيو من التقرب كثيراً من شيوخ الأزهر خاصة علماء الديوان الذي كان نابليون قد أسسه في القاهرة.

وفي أثناء فترة الفراغ السياسي من١٨٠١ إلي ١٨٠٥ استشعر الطابع الخاص الذي يميز الضابط الألباني «محمد علي» فتقرب منه.. ونشأت بينهما صداقة قوية كفلت له أن يكون بالنسبة لمحمد علي بمثابة المستشار الفعلي السياسي والعسكري والإداري لمحمد علي في رحلة صعوده نحو حكم مصر.

وبعد فترة استدعي نابليون ماتيو ديليسبس.. وكان آخر ما طلبه ماتيو ديليسبس من محمد علي قبل رحيله هو الأخذ بيد ابنه الوليد فرديناند..

❖❖❖

(١) فرديناند دى ليسبس هو الدبلوماسي الفرنسي الشهير صاحب مشروع حفر قناة السويس التي ربطت البحرين المتوسط والأحمر لأول مرة عام ١٨٦٩وافتتحت في عهد الخديوي إسماعيل.. وُلِدَ فرد في ضاحية فرساي القريبة من باريس بفرنسا في ١٩ نوفمبر عام ١٨٠٥ وفي سن السابعة والعشرين اختير فرديناند دي ليسبس قنصلاً مساعداً لفرنسا بالإسكندرية عام ١٨٣٢.

«طوسون باشا

هـو أحمـد طوسـون باشـا بـن محمـد علـي باشـا.. كـان جميـل الطلعـة.. متوقـد الذهـن.. ميّالاً للعلم.. ذا بأس وحزم.. وتركت وفاته وقعاً شديداً في قلب والده.

وُلِدَ عـام ١٧٩٥ وكـان مثـل أبيـه في عزمـه وحزمـه وطموحـه ولكـن لم يمهلـه القدر فمات شاباً.. استشعر فيه أبوه نبوغاً ورجولة مبكـرة فأرسـله وهـو فتـى لم يبلـغ العشـرين مـن عمـره في الحملـة الأولى لـبلاد الحجـاز.. فـأبحر عـام ١٨١١ مـن السـويس فنـزل في ينبـع وامتلكهـا.. وزحـف بجنـوده علـى السـعوديين.. وكـانوا شـديدي البـأس وفي قـوة عظيمـة فـردوه إلى ينبـع.. ولّمـا علـم والـده بـذلك.. أمـده بممده.. فتمالك قوته من جديد وتقدم إلى المدينة.. فاقتحمها.. وهدم أسوارها.. ثم دخلها وأثخن في حاميتها.. حتى سلَّمت.. فأرسل مفاتيحها إلى والده.. فبعث بها إلى الآسـتانة.. وانتشـر خـبر فـتح المدينـة في الحجـاز.. فخـارت عـزائم المقـاتلين.. وتركوا مكة.. خوفاً من أهلها.. فأتاها طوسون باشا.. ودخلها.. وكتب لوالده بذلك.. فسُر كثيراً لما أوتي على يد ولده من الفتح.. الذي لم يتأت لكثير من القواد.. يومئذ.

وفي صيف١٨١٣ زحف السعوديون على طوسون باشا وجنده.. لعلمهم أنه لا قِبل لهم بتحمل حرّ تلك البقاع.. فاستولوا على كل ما بين الحرمين.. فلمّا بلغ أباه ذلك.. سار بنفسه لنجدة ولده.. فنزل جدة.. في ٣٠ شعبان ١٢٢٨هـ وبعد أن أقام بمكة مدة يسيرة وأدى فريضة الحج.. قضت الأحوال بعودته إلى مصر.. فغادر الحجـاز.. وظل طوسـون يقاتـل السـعوديين.. فكـان الظفـر حليفـه في كـثير مـن المواقع.. وتقدم إلى نجد.. إلاّ أنه اضطر إلى التوقف.. لقلة المؤن.. وهـو لم يبلـغ بعد منطقـة الدرعيـة.. ثم رجع إلى المدينـة المنورة.. واسـترد السـعوديون أكثـر المواقـع.. التي استولى عليها..

DAVS OIL 2014 - 1

وبلغه حدوث قلاقل في مصر.. فخف برجاله إلى ينبع.. واستبقى حامية في المدينة.. ثم أبحر إلى السويس.. وأتى بموكب عظيم إلى القاهرة.. فاحتفل به احتفالاً كبيراً.. ولم يلبث أن توجه إلى الإسكندرية.. حيث كان في انتظاره أبوه وابنه عباس بك الذي وُلد أثناء غيابه وبلغ سنتين من العمر.. وتولى فيما بعد حكم مصر.

صورة نادرة لطوسون باشا وهو طفل

ولم يقم طوسون باشا بالإسكندرية مدة يسيرة حتى فاجأته المنية وهو في ريعان شبابه.. وكان ذلك في ٧ ذي القعدة عام ١٢٣١هـ / ٣٠ سبتمبر ١٨١٦ وحُمِلَ جثمانه إلى القاهرة حيث دفن بها..

❖❖❖

إبراهيم باشا

سواء أكان «إبراهيم باشا» هو ابن محمد علي باشا أم ربيبه[1] كما سبق وقلنا من قبل فقد كان ذراعه اليمنى.. وكاتم أسراره.. وكان بشكل خاص قائداً عسكرياً فذاً.. استطاع قيادة الجيش المصري في حملات عسكرية ناجحة ومتعددة مكنت محمد علي من ترسيخ أعمدة حكمه الوليد.

وأشهر حملات «إبراهيم باشا» كانت ضد الوهابيين.. والعثمانيين.. وحقق انتصارات كبيرة.. ففتح مدن الحجاز.. والشام.. والأناضول.. وكان على وشك فتح إستانبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية..

شبابه

في سنٍ مبكر.. وعندما بلغ الثمانية عشرة عاماً من عمره عينه محمد علي في الجيش المصري.. فأظهر من البداية قدرات عسكرية متميزة وأخذ يترقى إلى أن أصبح قائد فرقة..

---

(١) الربيب هو ابن الزوجة الذي تولى تربيته زوج الأم كابنٍ له.

DVSD OLMEDO - ٢٠١٤

ثم عينه محمد علي مدير مديرية.. فأظهر كفاءة إدارية متميزة.. وقلده فترة من الزمن ولاية الصعيد فكان عادلاً على عكس الوالي السابق (أحمد أغا) إذ كان شديد الظلم لأهل الصعيد.. ويصف عبد الرحمن الرافعي إبراهيم باشا في توليه أمر الصعيد في كتابه (عصر محمد علي) فيقول:

(كان[١] يناقض المذكور[٢] في أفعاله ويمنعه التعدي على أطيان الناس وأرزاق الأوقاف والمساجد ويحل عقد إبراماته فيرسل إلى أبيه[٣] بالأخبار فيحقد ذلك في نفسه ويظهر خلافه ويتغافل.. وأحمد أغا المذكور على جليته[٤] وخوص نيته فلما وصلته الرسالة[٥] اعتقد صدقه وبادر بالحضور في قلة من أتباعه حسب إشارته وطلع إلى القلعة ليلة السبت وهي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان فعبر عند الباشا وسلم عليه فحادثه وعاتبه ونقم عليه أشياء وهو يجاوبه ويراده حتى ظهر عليه الغيظ فقام كتخدا بك وإبراهيم أغا وخرجا من عند الباشا ودخلا إلى مجلس إبراهيم أغا وجلسوا يتحدثون وصار الكتخدا[٦] وإبراهيم أغا يلطفان معه القول وأشاروا عليه بأن يستمر معهما إلى وقت السحور وسكون حدة الباشا فيدخلون إليه ويتسحرون معه فأجابهم إلى رأيهم وأمر من كان بصحبته من العسكر وهم نحو الخمسين بالنزول إلى محلهم فامتنع كبيرهم وقال لا نذهب ونتركك وحيدًا فقال الكتخدا وما الذي يصيبه وهو همشري ومن بلدي وإن أصيب بشيء كنت أنا قبله فعند ذلك نزلوا وفارقوه وبقي عنده من لا يستغني عنه في الخدمة فعند ذلك أتاه من يستدعيه إلى الباشا فلما كان خارج المجلس

(١) أي إبراهيم باشا.
(٢) يقصد أحمد أغا.
(٣) يقصد محمد علي باشا.
(٤) أي ماضٍ في غيه.
(٥) أرسل محمد علي يستدعيه.
(٦) الكتخدا هو منصب يُعادل نائب في هيكل التوظيف العثماني.

قبضوا عليه وأخذوا سيفه وسلاحه ونزلوا له إلى تحت سلم الركوب وأشعل الضوى المشعل وأداروا كتافه ورموا رقبته ورفعوه في الحال وغسلوه وكفنوه ودفنوه وذلك في سادس ساعة من الليل وأصبح الخبر شائعًا في المدينة وأحضر الباشا الخجا وطولب بالتعريف عن أمواله وودائعه وعين في الحال باشجاويش ليذهب إلى قنا ويختم على داره ما له من الغلال والأموال وطلبت الودائع ممن هي عنده التي استدلوا عليها بالأوراق فظهر له ودائع في عدة أماكن وصناديق مال وغير ذلك ولم يتعرض لمنزله ولا لحريمه..

وفي سنة ١٨١٣ ناب عن أبيه محمد علي في حكم مصر عندما ذهب إلى بلاد الحجاز لمحاربة الحركة الوهابية.. اللي كانت قد تمكنت وقتها من تأسيس الدولة السعودية الأولى.

الوهابيين.. وفتحه الحجاز

بعد ما استقر محمد علي باشا في حكمه كان يريد أن يحقق لمصر أمنها الإقليمي.. في وقتٍ أصبحت فيه بلاد الحجاز مصدر قلق لمصر بسبب ظهور

DAYS OF EGYPT - 2

مؤسس الدعوة الوهابية «محمد بن عبد الوهاب» الذي تحالف مع أمين الدرعية «محمد بن سعود»[1] لنصرة الأفكار الوهابية.. لما مات محمد بن عبد الوهاب سنة ١٧٦٥ خلفه ابن عبد العزيز بن سعود اللي كان متحمس اكتر من أبوه لنشر الدعوة الوهابية فأرسل جيشه إلى كربلاء بالعراق سنة ١٨٠١ وأحدث هناك مذابح جمة بحجة أن أهل كربلاء كفار.. وقاموا بهدم مسجد «الحسن بن علي».. وتمكن أحد الشيعة هناك من قتل «عبد العزيز بن سعود» وهو يصلي في مسجد الدرعية.. فخلفه ابنه سعود الذي واصل هجماته حتى حدود مسقط[2].. وشواطئ الخليج.. ثم فتح الحجاز.. ودخل مكة.. ووصلت الدعوة الوهابية لعسير باليمن.. وتعطلت مراسم الحج.. فاضطربت الدولة العثمانية وأوشكت هيبيتها على أن تضيع لكونها غير قادرة على تأمين مراسم الحج.. في هذه الظروف لجأ السلطان العثماني لمحمد علي باشا طالباً مساعدته.. وأغراه بتحقيق حلمه في تحويل الحكم في مصر لنظام وراثي فاهتم محمد علي بالأمر.. وبدأ يحضر لحملته.. وعمل في البداية أولاً على تأمين طرق الموصلات بين مصر.. الحجاز.. وخرجت حملة محمد علي عن طريق البحر.. ونزل الجيش المصري في ينبع.. ووصل «طوسون» باشا ابن محمد علي عن طريق البر.. فقامت معركة بين

(١) الإمام محمد بن سعود بن محمد آل مقرن.. هو مؤسس الدولة السعودية الأولى زوج ابنه الإمام عبد العزيز من ابنة الإمام محمد بن عبد الوهاب.. ثم خلفه ابنه في تولى الحكم إلى أن اُغتيل في العشر الأواخر من رمضان عام ١٢١٨هـ ثم تولى بعده ابنه سعود إلى أن توفي عام ١٢٢٨ وكان يقود أحد جيوشه لصد الحملات العثمانية القادمة من مصر بقيادة طوسون باشا وبويع ابنه عبد الله الذي واصل حروب والده للحملات ولكنه فشل حيث أنه لم يلتزم بوصية والده الذي قال له لا تقاتل الترك بأرض مكشوفة.. وقد ستسلم عام ١٢٣٤هـ مقابل شروط منها عدم التعرض لأحد من المواطنين بأذى وعدم التعرض للمساكن والمزارع ولكن بعد ما تم استسلامه نكثوا بالعهود وقتلوا الكثير وقطعوا المزارع وأحرقوها وهدموا الكثير من المنازل على رؤوس ساكنيها ثم أخذوا معهم الإمام وقتل شهيدا باستانبول غدراً وخيانة وبهذا انتهت الدولة السعودية الأولى.. وسمي بآل مقرن نسبة إلى جده مقرن لأن الناس لم يسموا العائلة بآل سعود إلا في عهد الإمام سعود بن عبد العزيز آل سعود.. وتوفي الإمام محمد بن سعود بن محمد آل مقرن في عام ١٧٦٥.

(٢) عاصمة سلطنة عمان حالياً.

الجيش المصري والوهابيين الذين كانوا معتادين على الكر والفر في الصحارى.. وبصعوبة شديدة استطاع الجيش المصري نهاية الأمر أن يفتح المدينة المنورة.. ويلحق الهزيمة بالوهابيين.. من هناك توجه «طوسون» باشا إلى جدة.. فاستولى عليها.. ومنها إلى الطائف.. ففتحها في ٢٩ يناير ١٨١٣.

بعدها هُزِمَ ««طوسون» باشا» في ترنه.. فانتشرت الأمراض بين العسكر فاتخذ «طوسون» موقف دفاعي.. وأرسل لمصر يطلب المساعدة.. فخرج محمد علي بنفسه على رأس جيش.. وانضم لجيش «طوسون».. فارتفعت المعنويات.. بدأ الموقف العسكري يتحسن.

وبينما تدور الأحداث على هذه الوتيرة توفّي سعود الكبير قائد الوهابيين.. فخلفه ابنه عبد الله.. فأرسل محمد علي لنائبه في مصر «لاظوغلي» يطلب منه إرسال قوات.. وسلاح.. ومال..

واستطاع محمد علي أن يحقق انتصاراً كبيراً.. وواصل عسكر مصر زحفهم.. فعرض «عبد الله بن سعود» على المصريين الصلح أو الهدنة.

دور إبراهيم بك في الحرب الوهابية

في سنة ١٨١٨ أرسل محمد علي ابنه «إبراهيم باشا» على رأس جيش على الحجاز.. ليحقق هناك نجاحات عسكرية كبيرة.. فاقتحم نجد.. حاصر الرس.. عُنيزة.. الخُبر.. الدرعية.. فاضطر عبد الله بن سعود لطلب الصلح.. وسلم نفسه للجيش المصري فأسروه.. وذهبوا به إلى مصر في ١٦ نوفمبر ١٨١٨.

فأكرمه محمد علي.. بعد ها أرسله إلى السلطان العثماني في إستانبول.. وهناك أمر السلطان العثماني بإعدامه.. وعين محمد علي والياً على مكة.. والمدينة.. بينما عين «إبراهيم باشا» والياً على جدة.. فقرر «إبراهيم باشا» أن يدمر الدرعية بالكامل حتى يمنع عودة الوهابيين إليها.. أو التحصن فيها.. وهناك أنشأ «إبراهيم باشا» التكية المصرية في الحجاز.

DAYS OF MOHAMED ALI

عملياته في المورة

في سنة ١٨٢٤ عين السلطان العثماني محمود الثاني محمد علي حاكماً على شبه جزيرة المورة ببلاد اليونان.. حتى يساعده ضد الثوار اليونانيين في حرب الاستقلال اليونانية اللي كانت دائرة وقتها.

واستطاع «إبراهيم باشا» أن يحقق هناك انتصاراتٍ كبيرة بطريقة أذهلت الأوروبيين.

معركة نفارين

وفي ١٨٢٧ اتفقت روسيا مع كلٍ من إنجلترا.. فرنسا على عدم تبعية اليونان للسلطنة العثمانية.. فقرروا ضرب الأسطولين المصري والتركي.. فقامت معركة بحرية عُرِفَت باسم معركة نفارين (أو معركة ناوارين) انتهت بهزيمة أسطولي مصر.. تركيا.

كيف دارت أحداث المعركة؟

وقعت أحداث معركة نافارين وهي معركة بحرية في خليج ناوارين (فيلوس شرقي بيلوبونز) جنوب اليونان في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م بين الأسطول العثماني مدعما بالأسطول المصري بقيادة إبراهيم باشا والأسطول الجزائري من جهة.. وأساطيل الحلفاء (بريطانيا.. فرنسا وروسيا) من جهة أخرى.

وبعد هزيمة العثمانيين فيها شر هزيمة كانت بداية الضعف في صفوف الإمبراطورية العثمانية.. وبدأت مرحلة استقلال اليونان من الحكم العثماني.

أسباب المعركة

- الخوف من التوسع العثماني في أوروبا الشرقية حيث استطاع الجيش العثماني الوصول إلى أسوار مدينة فيينا وأيضاً الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى منطقة القوقاز[1].

(١) ما يعرف اليوم بالشيشان وداغستان.

- رغبة التملك والتسلط التي كانت عند قياصرة روسيا (نيقولا الأول.. الكسندر الثاني)

كان وفقاً لاتفاقية لندن في ٦ يوليو ١٨٢٧ تصير كل من فرنسا.. بريطانيا العظمى وروسيا ضامني الحكم الذاتي لليونان في إطار الخلافة العثمانية.. وقبل الثوار اليونانيون التسوية بسهولة.. لكن نظراً للوضع الصعب الذي كانوا فيه فإن العثمانيون رفضوا الحل.

فاتفقت القوات الأوروبية الثلاثة على إرسال أسطول بحري لمضايقة القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا وإجباره على إخلاء بيلوبونيز الحالية..

وقاد الأسطول نائب أمير البحر (الكونتر أدميرال) إدوارد قودرينكتن.. وتقرر فقط إظهار القوة لا المواجهة.

وكان هناك قسم من الأسطول البحري يبحر في المنطقة منذ أكثر من عام.. وكانت مهمتهم محاربة القرصنة البحرية.. وكان يخشى ألا يستطيع البحارة خوض معارك أخرى.

حتى قدم شهر أكتوبر وتعزز الأسطول صار من الواضح أن المهمة هي الضغط فقط على العثمانيين.. كما أن البحارين سمعوا عن أخبار ما كان يفعله العثمانيون في المنطقة للثوار اليونانيين من تعذيب لا داعي منه.. فازداد تحمسهم للقاء الأسطول العثماني ومواجهته بمناوشات أو أكثر..

وفي ذلك كان الأسطول العثماني راسياً في خليج نافارين وعُرِضَ عليه مرتين شروط إخلاء الخليج المقترحة من طرف القوات الثلاثة.. لكن إبراهيم باشا رفض شروط الإخلاء المقترحة.

ولم يحتمل الأدميرال قودرنكتن صبراً فقرر استعراض القوة في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ مستغلاً فرصة هبوب رياح جنوبية غربية.. ودخل الخليج معززاً بـ ١١ سفينة بريطانية و٨ سفن روسية و٧ سفن فرنسية معها ١٢٧٠ مدفعاً.

DAYS OF MOHAMED ALI

أما القوات العثمانية فكانت مكونة من ٨٢ مركبا ٢٤٣٨ فوهة نارية و ١٦ ألف رجل.

دخلت سفينة آزيا الأولى في الخليج وكان الأسطول متكونا من صفين.. فقط بجانب بارجة أمير البحر البريطاني كانت بارجة أمير البحر الفرنسي لا سيران توقفت آزيا أمام قلعة نافرين.. التي تربع على سفحها المعسكر العثماني.. كانت القوات الثلاثة على مدخل الكماشة العثمانية التي كانت لا تنتظر إلا قفل الفخة على الأسطول العثماني.. كانت المراكب متراصة بعضها البعض وعلى مرمى طلقة من العثمانيين..

وأرسل أمير البحر "قودرنكتن زورقاً للتفاوض مع إبراهيم باشا.. أطلقت رمية مدفعية بيضاء من القلعة ظنها الأسطول العثماني إشارة للاستعداد للعمليات.

وتوقفت الرياح.. فصارت السفن كلها تطفو بلا حراك حتى أنه تم وضع الأشرعة.. وكان جزءاً من الأسطول - خصوصاً الأسطول الروسي - لم يدخل بعد الخليج.. ولم يشارك في المعركة إلا في نهايتها.. وكان عليه مواجهة الطلقات الآتية من القلعة.. وكان أمير البحر "قودرنكتن واضحاً مع بحارته (لا طلقة مدفع.. أو سلاح آخر إلا إذا كانت رداً على طلقة عثمانية).

وكان هناك بارجة يقودها ملازم يُدعى (فيتزوري).. وطلب منه التنقل.. فقامت الحارقة الحارسة العثمانية بإطلاق النار على السفينة البريطانية.. فقتلت الملازم فيتزوري.. وكان أول ضحايا المعركة وكان معه عددٌ من مجدفيه.. فقامت البارجتان الدارثموت ولاسيران بالرد بالبنادق.

و بدأت المعركة بينما لم تبدأ بوارج الأمراء تبادل أي طلقة نارية كما جرت العادة من قبل..

وهكذا دارت رحى المعركة التي انتهت بالنهاية التي أشرنا إليها.

❖❖❖

حملاته في السودان

عمل محمد علي جاهداً على أن يوسع رقعة حكمه شرقاً إلى الحجاز.. وغرباً إلى ليبيا وجنوباً إلى السودان ليضم هذه البلدان تحت إمبراطوريته حتى أنه شمل في تهديده الإمبراطورية العثمانية شمالاً.. بدأ بأراضي الحجاز فهاجمها في السنوات ما بين ١٨١١ - ١٨١٨م وانتصر على السعوديين وبعدها اتجه غرباً فأمّنَ حدوده الغربية حتى واحة سيوه سنة ١٨٢٠.

لم يبق له سوى تأمين الحدود الجنوبية.. بعد أن شغلته حملاته ضد (الحجاز) عن ذلك حتى أرسل وفداً يحمل في ظاهره الصداقة والمودة إلى سلطان الفونج في ١٨١٣ وكانت مهمة الوفد استقصاء الحقائق حول الوضع العام في بلاد السودان سياسياً.. واجتماعياً.. واقتصادياً وكذلك عسكرياً.. وحمل الوفد هدايا إلى السلطان تقدر قيمتها بـ ٤ ألف ريال[1] فرد السلطان الهدية بما يتناسب ورغبات الباشا ولكن أهم ما حمله الوفد في طريق عودته كانت التقارير التي تفيد ضعف السلطنة خاصةً.. والسودانيين عامةً بالإضافة إلى خلو السودان من الأسلحة النارية.. رغم ذلك تأخر الغزو بعد ذلك عدة سنوات لأن الوهابيين لم تتكسر شوكتهم بعد.

(١) كانت العملة السائدة في السودان في ذلك الوقت الريال النمساوي أو الإسباني أو المكسيكي.

DAS OLIVEIRA

أسباب أخرى لغزو محمد علي بلاد السودان

استقدامه الجنود من السودان

الجندي السوداني معروف عنه شجاعته.. وتكوينه الجسماني القوي.. لذلك أراد محمد علي أن يستقدم الجنود من السودان للمساعدة في تكوين جيشه الحديث وإمداده بعناصر متميزة.. وكان هذا من الأسباب التي دفعته إلى الاستيلاء على السودان.. اشتهر السودان منذ القدم بأن أراضيه غنية بالذهب وكان محمد علي في حاجة إليه لإنفاقه على بلاده عسكرياً وصناعياً وحتى زراعياً.

تأمين منابع المياه

خلال القرن الثامن عشر كانت الحبشة تشكل تهديداً للمصريين والسودانيين بتحويلها لمجرى النيل وخاصة بعد الأنباء التي أشاعت أن الإنجليز وأوروبا عامة يسعون لمساندة لفكرة التحويل.. فأراد محمد علي أن تأمين هذا لإدراكه قيمة وأهمية النيل بالنسبة للحياة في مصر.

زيادة الرقعة الزراعية

أراد محمد علي أيضاً باستيلائه على السودان إضافة المزيد من الرقعة الزراعية لأراضيه..

متابعة فلول المماليك

أراد محمد علي من تأمين السودان ضمان ملاحقة فلول ما تبقى من المماليك الذين هربوا من مذبحة القلعة.. وملاحقته إياهم في ربوع مصر.. مكائده اتخذوا من شمال السودان موطناً لهم بالقرب من مملكة الشايقية.. خاصةً أنهم أنشئوا هناك مملكة لهم كانت بمثابة طعنة في ظهر محمد علي.. لذلك قرر أن يقضي عليهم خوفاً من أن تزيد سلطتهم ويسيطروا على السودان فيشكلوا خطراً على حكمه.

الاستفادة من ثروات السودان الطبيعية

كان محمد علي يرمي إلى استغلال ثروات السودان الطبيعية.. واحتكار حاصلاتها وتسويقها في السوق العالمية عن طريق مصر.. وكان من أهم صادرات السودان آنذاك (العاج.. الأبنوس.. ريش النعام والجلود)..

السيطرة على مناجم الذهب

هذا بالإضافة للذهب الموجود في السودان بكميات مهولة.. وكون السودان كان سوقاً جيداً للصادرات المصرية.. وهو ما يسمح بالحصول على التمويل لدعم القطاعات المختلفة في مصر باستغلال الذهب والتجارة والحاصلات السودانية.

عودة الوفد المصري

بعد عودة الوفد المصري التركي الذي أرسله محمد علي باشا ما لبث أن قدم إلى مصر الشيخ (بشير ود عقيد)[1] من قرية أم الطيور قرب عطبرة في ١٨١٦ وطلب من محمد علي أن يعينه على خصمه ملك الجعليين الذي أقصاه من مشيخته.. اعتقد الشيخ أن الباشا سيساعده فأبقاه الباشا وأكرم وفادته حتى أعد العدة لفتح السودان وأرسله مع الجيش سنة ١٨٢٠ ثم عينه شيخاً على شندي في آخر الأمر بعد نزوح الملك نمر إلى الحبشة.. وأرسل أيضاً جيشاً آخر إلى سلطنة الفور ليستولي على كردفان ودارفور.

حملة محمد علي الأولى إلى السودان

الزحف إلى سنار يوليو ١٨٢٠

استخدم محمد علي ذكاءه حيث كان يعلم أن السودانيين يُجلون علماء الدين إجلالاً عظيماً فأرسل مع الجيش ثلاثة من أكبر العلماء وهم:

القاضي محمد الأسيوطي الحنفي..

---

(١) أحد زعماء بلاد السودان آنذاك.

DAYS OF MOHAMED ALI

السيد أحمد البقلي الشافعي..

والشيخ السلاوي المكي..

وكان عليهم أن يحثوا الناس على وجوب طاعة الوالي ويتجنبوا سفك الدماء (لحرمتها) ويطيعوا الخليفة العثماني ووالية في مصر..

وتولى قيادة الجيش الأول إسماعيل بن محمد علي باشا وضم الجيش ٤٥٠٠ من الجنود فيهم الأتراك والأرناؤوط والمغاربة.. ويُقال أن هذا الجيش لم يضم بين صفوفه أي جندي مصري.. وكان معهم بخلاف السلاح التقليدي (البنادق) ٢٤ مدفعاً.

الزحف براً.. وبحراً..

وما أن ارتفعت مياه النيل في فيضان يوليو ١٨٢٠ حتى اندفعت ٣٠٠٠ مركبة تشق النيل من أسوان متجهة جنوباً ومثل ذلك العدد من الجِمال كان يسير على اليابسة تابعاً للحملة.

التسليم الفوري

وجد حكام شمال السودان أنفسهم ضعافاً أمام الحملة نظراً لتفرقهم إلى ممالك صغيرة.. فسلموا الأمر إلى إسماعيل باشا.. أما المماليك فهرب جزء منهم إلى الجعليين وسلم البعض الآخر نفسه إلى إسماعيل.

معركة كورتي نوفمبر ١٨٢١

لم يقابل جيش إسماعيل أية عقبة حتى وصل الديار الشايقية الذين اعتزوا بسطوتهم على جيرانهم وثورتهم على الفونج.. وآثر الشوايقة الخضوع للحكم على أن لا يتدخل الباشا في شؤونهم لكن إسماعيل وضع شروطاً كان أهمها هو تسليمهم الخيل والسلاح (الأبيض) وأن يفلحوا الأرض فلم يقبلوا بذلك وعزموا على القتال.. بدأ النصر يلوح للشوايقة حتى أنهم قطعوا أذان عدوهم بقيادة الملك صبير حاكم غرب الشايقية وانضموا إلى المقاومين الذين لحقوا بالمماليك في دار جعل.. بقيادة الملك جاويش حاكم عموم الشوايقة في مروي.. فمنح إسماعيل

مكافأة لكل جندي يقتل شايقياً ويأتي بأذنيه دليلاً وكان من جراء ذلك أن عاد الجنود بعدد ضخم من آذان القتلى والأحياء لكن هذه القسوة محتها المعاملة الحسنة من عبدي كاشف أحد قادة جيوش إسماعيل حين أعاد فتاة تُدعى (صفية) كانت بنت الشيخ (صبير) شيخ السوارب أحد ملوك الشوايقة وكانت تؤلب الرجال وتثير فيهم الحماس ليستميتوا في قتالهم ضد الغُزاة.. انضم رجال الملك صبير إلى جيش إسماعيل برغبتهم.. وساروا معه لإخضاع باقي المناطق.

وذهب الملك جاويش إلى المتمة حيث الملك نمر لكن الملك أبى أن يقبل التحالف معه فاتجه جنوباً إلى حلفاية الملوك الذين رفضوا أيضاً فهاجمهم بخيالته ثم اتجه شمالاً ليعلن عن رغبته في الانضمام إلى جيش إسماعيل.

وبانضمام الشايقية إلى الجيش الغازي كان لهم تاريخ جديد هو التعاون مع الأتراك والمصريين حتى قيام الثورة المهدية.. وكانت نزعتهم هي أن يكونوا سادة مع السادة مهما كان الأمر بدلاً من أن يعيشوا كسائر الرعية.. وربما كان حبهم للجندية هو أهم دافع لهم على السير في جيش إسماعيل.. قرر الملك نمر الإذعان للجيش الغازي فانضم للجيش وألحقه إسماعيل بجيشه ليضمن ولاءه.. وسار الجيش حتى بلغ الحلفايا (دار العبدلاب) حتى جاء ملكهم الشيخ ناصر بن الأمين خاضعاً للجيش فتركه سيداً على بلاده وأخذ ابنه ليضمن ولاء العبدلاب كما جعل من الملك نمر ضماناً لولاء الجعليين وكان ذلك في ١٨٢١.

اجتياح سنار

سار الجيش متجهاً نحو سنار عاصمة مملكة الفونج فأرسل إسماعيل إلى الوزير محمد ود عدلان الذين كان ممسكاً بزمام الحكم بدلاً من السلطان بادي السادس.. وطلب منه إسماعيل باشا الولاء للخليفة العثماني فكتب له ود عدلان رسالته المشهورة: (لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية.. فنحن هنا

الملوك وهم الرعية.. أما علمت بأن سنار محروسة محمية.. بصوارم قواطع هندية.. وجياد جرد أدهمية.. ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية).

كان ظاهراً أن ود عدلان لم يكن يعيش واقع عصره إذ أن جواسيسه أخبروه أن الجيش قوامه ١٨٦ ألف محارب (نلاحظ أن الجيش المتحرك من مصر كان ٤٥٠٠ جندي) حتى انه أخذ يطلب العون من الأولياء والصالحين بدلاً من تجنيد الجند من القبائل ومحالفة القبائل الأخرى ليستعد لمقابلة الجيش.

اغتيال ود عدلان

بعدها تم اغتيال ود عدلان بسبب مشاكله مع أبناء عمومته قبل أن يصل إلى اتفاق مع الفور بشأن توحيد الكلمة لمحاربة الغازي..

التفاوض مع إسماعيل

بدأ الوزير الجديد للسلطنة في السعي للتفاوض مع إسماعيل في ود مدني ونقل إليه رغبة السلطنة في الخضوع بعد أن أدرك أنه لا فائدة تُرجى من المقاومة.. لما اقترب إسماعيل من سنار خرج إليه بادي السادس (الذي كان شاباً في الخامسة والعشرين) مبايعاً وتنازل عن سلطانه لخليفة المسلمين في ١٣ يونيو ١٨٢١.

وهكذا انتهت سلطنة الفونج التي عاشت في ربوع السودان من عام ١٥٠٤ – ١٨٢١م.. بدخول الجيش المصري في اليوم التالي دخول الغزاة المنتصرين وهم يقصفون البر ومن خلفهم سار السلطان السابق بعد أن عينه إسماعيل شيخاً على سنار ليجمع الضرائب ويسلمها للإدارة التركية المصرية.

❖❖❖

الحملة الثانية

(حملة كردفان ودارفور)

ثم أرسل محمد علي جيشاً آخر بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لضم غرب السودان إلى مصر.. ولقد أمد (قبيلة الكبابيش)[1] من تلك المناطق أمدت جيش الدفتردار بما يحتاج إليه من جِمال لنقل العتاد إلى غرب السودان.. وكانوا خير دليل لتحديد أماكن الآبار ومناطق المعسكرات.

وسار جيش الدفتردار عقب انطلاق الجيش الأول وقبل أن يصل إلى الأبيّض عاصمة الفور أرسل إلى سلطانها محمد الفضل ينصحه بالتسليم.. فرد عليه الفضل:

(أما علمت أن عندنا العِباد والزُهاد.. والأقطاب والأولياء الصالحين ممن ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم.. فتصير رماداً.. ويرجع إلى أهله والله يكفي شر الظالمين).

لكن الدفتردار تقدم إلى كردفان دون أن يعترضه أي معترض.. فلما علم الوالي خرج بعسكره متجهاً شمالاً إلى بارا ليواجه الجيش الغازي.

معركة بارا ١٦ أبريل ١٨٢١م

التقى الغزاة مع جيش المقدوم مسلم والي كردفان الذي عينه السلطان محمد الفضل وهو سلطان دارفور الذي ضم كردفان إلى مملكته وعين محمد الفضل حاكماً على كردفان تحت سلطانه وعقبهم في كردفان يسمون بالمسبعات.. فاندفع جيش الأخير لا يتوقع سوى النصر.. لكنهم تفاجئوا بسقوط الجنود بالرصاص فعلموا أنه لا قِبل لهم بعدوهم وهم يحملون السيوف والرماح.

(١) هي القبيلة التي تقطن بين مصر والمناطق الغربية للسودان والتي كانت تحمل البضائع من وإلى مصر.

DAYS OF MOHAMED ALI

سقوط كردفان

وهكذا انتهت معركة بارا بهزيمة السودانيين وانتصار الجيش المصري.. فسقطت كردفان في يد الدفتردار قبل سقوط سنار في يد إسماعيل.. لم يحاول السلطان المقاومة بل نزح إلى الفاشر ينتظر تطورات الموقف.. لم يسر الدفتردار أبعد من الأبيّض لندرة المياه في تلك المناطق فأعلن محمد علي باشا عدم رغبته في فتح دارفور بل فكر في إخلاء كردفان والتنازل لأحد الملوك ليدفع الجزية إلا أن الدفتردار أقنعه بالعدول فعدل عن ذلك في ١٨٢٢م.

وبذلك سقطت كردفان من سلطنة الفور التي كانت تحت إمرة ملوك دارفور منذ عهد السلطان تيراب[١].

مقتل إسماعيل بن محمد علي باشا ١٨٢٢

بدأت الثورات تظهر في مختلف المناطق بسبب التصعيد المتواصل في الضرائب التي فرضها رجال محمد علي على السودانيين إذ أن الضرائب السنوية للممتلكات كانت تقدر بنصف الثمن.. فلما هدأت الثورات بعد أن زاد الولاة في قسوتهم وزادوا في ضرائب الجهات الثائرة إذ أن الجزيرة زيدت ضرائبها من ٣٥ألف ريال إلى ٥٠ ألف ريال وكذلك أراضي الجعليين.

بين إسماعيل باشا والملك نمر

وصل إسماعيل باشا إلى شندي في ديسمبر ١٨٢٢ وأمر الملك نمر والملك مساعد بالمثول أمامه.. وعند حضورهما بدأ الباشا بتأنيب الملك نمر واتهامه بإثارة القلاقل ومن ثم عاقبه بأن أمره بدفع غرامة فادحة.. قدرها (١٠٠٠ أوقية ذهب..

(١) كانت عاصمة ملكه هي (شوبا) إحدى ضواحي مدينة كبكابيه الآن وبها آثار مسجده العتيق .

ألفي عبد ذكر.. ٤ آلاف من النساء والأطفال.. ألف جمل ومثلها من البقر والضأن) وهو بالطبع طلب شبه مستحيل.

حكاية (سعيدة) زوجة الملك نمر

ثم رأى إسماعيل (سعيدة) زوجة الملك نمر فأُعجِبَ بجمالها وطلب أن يأخذها هي أيضاً.. رد الملك باستحالة الطلب فأهانه الباشا وضربه بغليونه التركي بإساءة بالغة أمام الحاضرين.. حتى أن الملك رفع سيفه فأوقفه الملك مساعد وتحدث إليه باللغة الهدندوية (التي عرفوها عن طريق التجارة مع سكان البحر الأحمر) فأبدى الملك رضوخه وأظهر خضوعه بأن دعا الباشا إلى العشاء وذبح له الضأن وهيأ له الحرس وأمعن في خدمته وأخبره أن الغرامة ستدفع في صباح اليوم التالي.. أثناء ذلك كان الجعليون يطوقون الحفل بالقش من كل مكان مخبرين رجال الباشا أنها للماشية التي ستحضر وقبيل انفضاض الحفل أطلق الجعليون النار في القش فمات إسماعيل ورجاله خنقاً وحرقاً.. نتيجة لذلك ساءت معاملة المغتصبين أشد الإساءة حتى أنهم قتلوا في إحدى المرات ٣٠ ألف من الجعليين العزل.. استمر الملك نمر في إغارته على الدفتردار حتى بلغت خسائر رجاله عدداً عظيما بفضل السلاح الناري فهاجر الملك ومعه عددُ لا يستهان به من القبيلة إلى حدود الحبشة حيث خطط مدينة أسماها المتمة أسوة بعاصمة الجعليين في الشمال ومكث هناك عدة سنين حتى مات.

استمر الحكم الدفتردار العسكري للسودان واستمرت المجازر البربرية كما أن الجنود الذين لم يتسلموا مرتباتهم لمدة ثمانية أشهر بدءوا بالبطش والنهب ليجدوا متطلبات حياتهم.. إلى أن ثار الرأي العام الأوروبي.. فأمر محمد علي.. الدفتردار بالعودة سنة ١٨٢٤ محاولة منه إنهاء الحكم العسكري وإرساء نظام إداري أكثر إنسانية.

DAYS OF MOHAMED ALI

عند الدخول التركي عينت سنار عاصمة للسودان إلا أن أمطارها الخريفية وكثرت الأمراض فيها اضطرتهم إلى تغييرها إلى ود مدني إلى أن أتى عثمان باشا الذي خلف الدفتردار عقب عودته إلى مصر وأعجب بالمنطقة التي يقترن فيها النيل الأبيض بالأزرق فبنى قلعة ووضع فيها الجند سنة ١٨٢٤ واتخذها عاصمة له.. تلك كانت بداية مدينة الخرطوم التي ازدهرت وسكنها ٦٠ ألف نصفهم من المصريين واليونان واللبنانيين والسوريين وأعداد من الأوروبيين.

حملاته في الشام.. الأناضول

كان محمد علي يريد تأسيس دولته بحيث تضم كل العرب من مصر إلى بلاد مابين النهرين.. فأرسل «إبراهيم باشا» بجيشه على الشام سنة ١٨٣٢ وهناك حقق «إبراهيم باشا» انتصارات ضخمة على الجيش العثماني كانت خسائره فيها أقل القليل.. واستولى على الشام بما فيها دمشق.. حمص.. غزة.. حيفا.. يافا.. واستمر إبراهيم يحقق انتصاراً وراء انتصار في بلاد الشام.. في بيلان.. قونيه.. وهزم العثمانيين في «معركة نزيب».. واستولى على كوتاهيه.. واقترب من دخول إستانبول نفسها عاصمة العثمانيين.. وأوشكت أن تقع في يده لولا تدخل الأوروبيين بمطامعهم الخاصة.. وبعد أن استنجد بهم السلطان العثماني وكان من بينهم روسيا نفسها التي كان يناصبها العداء بالأمس القريب.. ولكن وَحَدَت بينهم مشاعر الذعر والتخوف من مطامع محمد علي وطموحاته التوسعية.. واستجاب الروس فوراً.. وحركوا أسطولهم للساحل الأوروبي تجاه تركيا.. ولما علمت كل من فرنسا.. وإنجلترا بذلك اندلعت بينهم حُمى التنافس على التركة العثمانية.. وضغطوا على السلطان العثماني للاتفاق مع محمد علي.. وفي نفس الوقت واصلوا ضغطهم لإيقاف زحف «إبراهيم باشا».. ونجحوا بالفعل في ذلك.

محمد علي وثورة فلسطين ١٨٣٤

لم تقم في فلسطين على امتداد تاريخها الطويل ثورة أعم وأشمل وأكثر تنظيماً من ثورة ١٨٣٤ التي قام بها أهل البلد ضد حكم محمد علي باشا والي مصر.. وقد دخلت بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين تحت حكم محمد علي باشا لمدة عشر سنوات بدأت في شهر نوفمبر ١٨٣١ وانتهت بنهاية عام ١٨٤٠ بعد الحملة العسكرية التي قادها إبراهيم باشا واكتسح خلالها قوى السلطان محمود الثاني وطاردها حتى مشارف الآستانة..

رأي محمد علي أنه يستطيع امتلاك عكا على الأقل لتأمين حدوده الشرقية.. وكان يراقب بارتياح تردي الأمور بين الولاة في الشام.. والولاة اقتتلوا حول دمشق ثم حاصروا عكا لمدة ٩ أشهر سنة ١٨٢٢ وثار الجنبلاطيون سنة ١٩٢٥ وتناعت الزعامات النابلسية في قضايا الولاية والضرائب.. وامتنعت القدس وبيت لحم عن دفع الضرائب.. وقامت ثورة في فلسطين رغم دكتاتورية (عبد الله باشا الجزار) والي عكا آنذاك.. وكان الملتزمون يتسلمون جمع المال في غزة بشكل أصبح عبئاً ثقيلاً على أهل غزة.. أما البدو في الأطراف فكانوا ينهبون من ثروات غزة مئات الآلاف من الليرات الذهبية كل عام.. لذا عندما سمع الناس بقدوم محمد علي.. شعروا بقرب الفرج.. فطردوا وكيل الجمرك وأعلنوا العصيان.. ولم يكن تهديد الجزار لهم يخيفهم لأن الجنود المصريون سبقوه إلى غزة.

أما القدس ونابلس فقد جرد عليهم الجزار حملة نكبت زعماءهم واضطر قسم منهم إلى الثورة واعتصموا بقلعة صانور فدمرها الجزار مما دفع من تبقى من الزعامات للتعاون مع محمد علي.

ولم يدفع عبد الله الجزار لمحمد علي ديونه.. وآوى إليه مجموعة كبيرة من الفارين من الضرائب في مصر.. فاتخذ محمد علي ذلك ذريعةً لمهاجمة فلسطين

DAYS OF ZEMAN

ومحاربة والي عكا.. وبسبب كثرة الحروب بين الولاة لم يكترث الباب العالي في البداية لهذه الحرب.

تحركت جيوش محمد علي براً وبحراً بقيادة إبراهيم باشا في ١٨٣١/١٠/٢٩ ولم تجد صعوبة في احتلال العريش ورفح وغزة.. وهربت قوى الجزار فتابع إبراهيم باشا مسيرة ووصل إلى يافا في ١٨٣١/١١/٨ ودخلها وتوجه إلى حيفا في ١١/١٣ وفي ١١/٢٦ بدأ حصاره لعكا.

قدم زعماء المناطق الفلسطينية الولاء لإبراهيم باشا وهو في حيفا.. وكانت كتائب من الجيش المصري قد احتلت بقية فلسطين.. ورفعت الضرائب التعسفية عن غير المسلمين مما زاد في تأييد محمد علي باشا.

بعد عدة أشهر من حصار عكا بدأ القلق يساور محمد علي.. خصوصاً أن الباب العالي أعلن عصيان محمد علي في ٢٣ إبريل ١٨٣٢ واستصدر ضده فتاوى دينية وجرده من الولاية مع ابنه وأباح دمهما.

لكن عكا سقطت في ٢٧ مايو ١٨٣٢ وأُسِرَ عبد الله باشا.. وأُرسِلَ إلى مصر.. وثارت بعد ذلك أزمة دولية خطيرة انتهت بصلح كوتاهية في ٦ مايو ١٨٣٣ الذي أعطى محمد علي ولاية فلسطين.

حاول إبراهيم باشا بعد ذلك دعم الإنتاج الزراعي في بلاد الشام.. وأدخل إصلاحات على نظام التعليم.. لكن مجموعة التدابير التي اتخذها جلبت النقمة عليه من قبل سكان فلسطين ومن أهم هذه التدابير:

- مصادرة المؤن لتموين الجيش.
- مصادرة حيوانات النقل.
- إجبار الناس على إقامة التحصينات العسكرية بالسخرة.
- نزع السلاح من الأهالي.
- التجنيد الإجباري.

وعندما صدر أمر إبراهيم باشا بطلب ٣٠٠٠ مجند من كل قضاء فلسطين وذلك في ٢٥ إبريل ١٨٣٤ تسبب ذلك في الصدام المسلح مع الأهالي..

في منتصف مايو من نفس العام هاجم الفلاحون والبدو القوات المصرية في الكرك.. وذُبِحَت حامية الخليل.

وفي ٢٥ مايو ١٩٣٤ التهب طريق باب الواد وتحركت الفتية في بيت جالا وبيت لحم.. والبيرة.. وقام الناس بحصار القدس.. واشتعلت نابلس فوصلت الثورة من صفد شمالاً إلى غزة جنوباً.

لم تكن الثورة مجرد انفجار شعبي عفوي.. بل اتخذت الشكل التنظيمي حين تسلمت الزعامات قيادتها.. فقد اجتمعوا وقرروا إعلان الثورة في ٢٨ إبريل ١٨٣٤ وسيطر ثوار القدس على المدينة في ١٤/ مايو من العام نفسه وكانت الخليل وغزة في يد الثوار والتحقت اللد وطبرية بالصورة أيضاً.

اتجه إبراهيم باشا بعدها إلى القدس يوم ٦ يونيو ١٨٣٤ وبعد ٣ أيام من المعارك الطاحنة دخلها في ٨ يونيو ١٨٣٤ وتحصن في قلعة القدس بانتظار نجدة أبيه..

حاول ثوار نابلس اقتحام القدس فصدهم إبراهيم باشا ٣ مرات.. ولم يجد بُداً من مفاوضتهم كي يكسب الوقت.. فأوقف التجنيد وألغى ضريبة الفِردة وعين (قاسم الأحمد) وهو قائد ثوار نابلس حاكماً على البلاد في ٢٦ يونيو ١٨٣٤.. فانتهي بذلك الحصار الذي استمر شهراً ونصف.

جاء المدد من مصر بعد أيام.. ووصل محمد علي بنفسه إلى يافا.. أوائل يوليو.. وكلف الأمير (بشير الشهابي) بإخماد ثورة صفد.. وعاد إلى الإسكندرية.. وكان ثوار نابلس وهم الأكثر عدداً والأخطر في هذه الثورة قد منعوا القمح المفروض عن إبراهيم باشا.. فسار إليهم في ١٠ يوليو ١٨٣٤ووعد بالإعفاء من التجنيد والتسامح في الميري.. وأخذ يتفاوض مع آل أبو غوش.. فلما استجابوا له مقابل إطلاق زعيمهم إبراهيم أبو غوش.. قطع مفاوضاته مع قاسم الأحمد وسار

DAYS OF MOHAMED ALI

إلى جبال نابلس وسحق في طريقه بلدة الطيبة وقاقون وهزم الثوار عند زيتا.. ولاقاهم عند دير الغصون في طولكرم يوم ١٦ يوليو ١٨٣٤ وتمكن من هزيمتهم هزيمة نهائية عاد بعدها إلى نابلس.. وخرج أهلها يطلبون الأمان.. فقتل من وقع في يده من الثوار وجرى تجريد السكان من السلاح.. أما بقية الزعماء فقد أخذوا عائلاتهم من نابلس وهربوا إلى الخليل.

في نفس الوقت سار الأمير بشير حسب أوامر محمد علي إلى صفد.. فلاقاه شيخها صالح الترشيحي معلناً الطاعة.. فدخلها الأمير.. وخضعت المناطق المجاورة وتلقى الأمير طاعة طبريا وقرى الجليل والساحل حتى عكا.. وانتهي من ذلك في ٢٥ يوليو ١٨٣٤.

دخل إبراهيم باشا القدس فقدم أهلها الطاعة.. وأرسل ثوار الخليل يطلبون الأمان ليدخلوا في الطاعة.. لكن إبراهيم باشا اشترط عليهم تسليم زعماء الثورة أحياء.. فرفض الثوار مطلبه.. فتحرك إليهم بقواته في ٥ أغسطس وهزمهم عند بيت جالا.. وأصرت الخليل على المقاومة.. فهاجمها واحتلها بعد بضع ساعات من المقاومة وأباحها للنهب والقتل والأسر.. وخسرت الخليل مالا يحصى من الأموال.. واعتقل علماءها ودراويشها وأبعدهم إلى مصر.. وأما مشايخ نابلس فقد فروا إلى الكرك شرقي الأردن.. ولما هاجمها إبراهيم باشا فر النابلسيون إلى غزة لكنهم وقعوا في الأسر لملاحقة إبراهيم باشا إياهم.. وقتل قاسم الأحمد والبرقاوي وقطع رؤوس أولادهما.

وإن كانت الثورة في فلسطين قد خمدت فإنها كلفت النظام المصري الكثير من الضحايا والجهد كما أنها جرأت عليه المناطق الأخرى وتركت الكثير من الأحقاد في فلسطين ستنفجر في وقت لاحق.

كما كانت هذه الثورة من أهم أسباب إجهاض مشروع محمد عي في إقامة مملكة عربية موحدة في مواجهة العثمانيين مما فرص علي محمد علي الانسحاب من بلاد الشام..

وقد ترك آخر جنود محمد علي غزة في اتجاه مصر في ١٩ فبراير ١٨٤١م.

معاهدة كوتاهيه

وتوصلت جميع الأطراف إلى عقد «اتفاقية كوناهيه» في إبريل ١٨٣٣ الموافق ١٨ من ذي القعدة سنة ١٢٤٨هـ وهي الاتفاقية التي قضت بتثبيت «محمد علي» على ولاية مصر.. ومعها كريت.. وسوريا بكل نواحيها.. وتجديد ولاية «إبراهيم باشا» على جدة.. مع منحه إدارة الحجاز في مقابل خروج الجيش المصري من الأناضول.

وكان من أهم بنود معاهدة كوتاهية:

- أن ترجع جيوش محمد علي عن إقليم الأناضول إلى ما بعد جبال طوروس.
- أن يُعطى محمد علي ولاية مصر مدة حياته.
- يعين محمد علي واليًا من قبله على ولايات الشام «عكا - طرابلس - دمشق - حلب» وأيضاً جزيرة كريت.
- يعين إبراهيم باشا واليًا على إقليم أضنة.
- واضطر السلطان محمود الثاني لتوقيع الاتفاقية وهو يضمر في نفسه الاستعداد للحرب مرة أخرى ويؤدب واليه المتمرد محمد علي.

تفاصيل معركة نزيب

وقعت معركة نزيب يوم ٢٤ يونيو ١٨٣٩ بين مصر والدولة العثمانية.. وانتصر فيها الجيش المصري والذي كان تحت قيادة القائد إبراهيم باشا على الجيش العثماني الذي دمر بالكامل بقيادة «حافظ عثمان» باشا.

DAYS OF MOHAMED ALI

تعكس هذه الحرب حالة الانشقاق التي ضربت وحدة الدولة العثمانية مع مصر أكبر ولاياتها خلال القرن التاسع عشر.. والنابعة من وهن الدولة العثمانية والفارق في التطور بين ما أحدثه محمد علي في مصر مدنياً واقتصادياً وعسكرياً.. وما آلت إليه الدولة العثمانية من ضعف.. ووهن.

وكانت الرؤية السياسية بعيدة المدى التي امتاز بها محمد علي عاملاً مهماً في نشأة الخلاف بينه وبين الخليفة العثماني.

واستغل محمد علي حالة الترهل الشديدة التي كانت عليها الدولة العثمانية.. وأيضاً حالة الانقسام الواضحة بين القوى الأوروبية وبعضها البعض واختلال نظرية التوازنات السياسية الإقليمية والدولية في فرض قوته وتميزه.

كما دل هذا الانتصار على التخطيط الاستراتيجي الناجح وتفوق إبراهيم باشا كقائد عسكري ومهارته المشهودة في القتال بجيشه على أراضي مختلفة.. وتضاريس مجهولة.. وتحت ظروف جوية معقدة كانت غير معتادة للجندي المصري حديث العهد بالجندية آنذاك.. وذلك على حساب نظيره العثماني والمعزز آنذاك بخبرات عسكرية من أوروبا جاءت لمساعدته.

لذا لم تكن الانتصارات التي حققها إبراهيم باشا وليدة المصادفة.. فقد جاءت بعد نضج مهاراته القيادية والعسكرية عبر خوضه سلسلة معارك وفتوحات عديدة في كل من السودان والحجاز ونجد وفلسطين وسوريا وحرب المورة في اليونان.

لماذا تدخلت الدول الأوروبية؟

بشاير ضعف وتفكك الإمبراطورية العثمانية دفع بعض القوى الأوروبية الساعية للبحث عن مستعمرات جديدة للتدخل من أجل إحداث توازن إقليمي يحفظ سيطرتها على الشرق.. واستغلال حالة الترهل الواضحة للدولة العثمانية.. وأيضاً لإنهاء الخلافة الإسلامية العربية.

وكان من الضروري لتحقيق تلك الأهداف العمل على دحض أهداف محمد علي.. ولذا قامت كل من المملكة المتحدة والإمبراطورية النمساوية بالتدخل لصالح الإمبراطورية العثمانية لدعمها من خلال إرسالهم لقوات وأسطول بحري عبر المتوسط لقطع الطريق بين مصر من جهة ومواقع البحرية السورية والجيش المصري من جهة أخرى.. ونجحت في ذلك في نهاية المطاف واضطر إبراهيم باشا إلى العودة إلى مصر في فبراير ١٨٤١م.

ويبقى أن نذكر أن الجيش المصري نجح في الانتصار من قبل بقيادة إبراهيم باشا على العثمانيين في معركة كوتاهيه والتقدم في تركيا حتى مدينة قونية الحالية.. وكان القائد إبراهيم باشا قد أصر على والده محمد علي باشا في المواصلة حتى الآستانة – إسطنبول - وبالتالي لإسقاط الخلافة العثمانية.. ويدلل بعض المؤرخين على أنه كان قادراً على ذلك.. إلا أن تردد محمد علي وإسهابه في الحسابات السياسية والمفاضلة مع أوروبا أدى إلى ضياع الفرصة على ولده إبراهيم ونشأة الخلاف بينهما.

مميزات «إبراهيم باشا» كحاكم

لم يكن «إبراهيم باشا» مجرد قائد عسكري متميز.. إنما كان أيضاً حاكماً ذكياً.. ومستنيراً.. ففي سنة ١٨٣١ وبعد أن فتح الشام استصدر فرماناً أمر فيه برفع الضرائب عن الكنائس.. وعن الرهبان المسيحيين في القدس.. ونابلس.. وجاء نص الفرمان كما يلي:

«نأمر أن تُلغى وإلى الأبد كل الضرائب التي تُجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفِرنجة وأقباط وأرمن وغيرهم مهما كانت الذريعة أو التسمية التي تُؤخذ بها هذه الضرائب حتى وإن سُميت هدية عادية وطوعية.. أو سُلِمَت إلى خزينة الباشوات أو لمصلحة القضاة وما شابه ذلك فإنها جميعاً ممنوعة منعاً باتا.. وبعد إعلان هذا الأمر سيُعاقب بصرامة كل من يطلب أقل إتاوة من المعابد والأديرة المذكورة أو من الحجاج »

DAYS OF MOHAMED ALI

كما أصدر فرمان آخر يسمح للمسيحيين بترميم كنائسهم وأديرتهم وتجديدها.

وفاته

وفي أواخر حياة أبيه «محمد علي» تولى «إبراهيم باشا» حكم مصر بعد نجح في إبعاد أبيه عن الحكم بعد أن أصابته - أي محمد علي - ما سمته كتب التاريخ بأعراض التخريف المرتبطة بكبر سنه وشيخوخته.. أي أنه لم يتآمر على أبيه.. بل بالعكس أنزله بأحد قصوره بالإسكندرية.. وعاش هناك معززاً مُكرماً حتى وافته المنية.. لكن الغريب أن «إبراهيم باشا» هو من توفي في ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ أولاً قبل أبيه محمد علي.. وكان قد مرَ عليه في حكم مصر أحد عشر شهراً فقط.. بعدها تولى حكم مصر ابن أخيه.. وحفيد محمد علي باشا عباس حلمي الأول.

❖❖❖

خورشيد باشا

يُعُدَّ من كبار قادة محمد علي باشا..

اسمه بالكامل (محمد خورشيد باشا).كان مملوكاً من أصل ألباني غير معروف الأب.. قدِم إلى مصر صغيرًا وتعلّم بها.. وبرز قائدًا من قواد محمد علي.. فعيّنه محافظًا لمكة في أوائل سنة ١٢٤٨هـ.. فثار عليه الجند فيما يعرف بحركة تركجة بيلمز.. فاستُدعي إلى مصر.. وعُيِّن قائدًا لكتيبتين فتوجه إلى الحجاز في ١٢٥١ هـ حيث كلفه محمد علي بقيادة فرقتين تعسكران في الحجاز.

بعد فشل حملة إسماعيل.. كُلف خورشيد بحملة قوية.. انطلقت من المدينة المنورة.. فوصلت نجدًا في شهر صفر.. ثم عيّنه محمد علي باشا محافظًا للمدينة المنورة.. ثم قائدًا للحملة المصرية على نجد التي انتهت برحيل الإمام فيصل.. وأصبح خالد بن سعود الكبير حاكمًا اسميًا.. فيما كان خورشيد هو الحاكم

الفعلي.. أخباره في نجد تؤكد أنه كان حكيمًا.. غير مبادر إلى سفك الدماء.. يوقّر العلماء لم يتعرض لهم بسوء.

من سنة ١٢٥٤ هـ استطاعت أن تبعث بالإمام فيصل بن تركي إلى القاهرة.. وتنهي الدولة السعودية.. وتسيطر على أراضيها..

طلب محمد علي منه تحديد الواردات التي يمكن أن تستخلص من تلك الأراضي.. والطريقة المثلى للسيطرة عليها.. وإدارة الجنود فيها..

وفي ذلك يقول خورشيد في رسالة لمحمد علي باشا:

(وصلت لي إرادة ولي النعمة ذي المكارم المعتادة في ١٩ ربيع الأول ١٢٥٥هـ الآمرة بأن نبيّن ما يحصل من الواردات من الْمَحال.. التي ينصب لها أمراء.. وكيف يمكن إدارة العساكر.. وما هي الفائدة التي تعود على الحكم) ومن مقره لذي اتخذه في ثرمداء.

وفي سنة ١٢٥٦هـ صدرت الأوامر إليه بالرحيل.. وإخلاء نجد طبقًا لبنود معاهدة لندن.. حيث عُيِّن وكيلاً للجهادية.. ثم مديرًا للدقهلية.. حتى توفي في المنصورة سنة ١٢٦٥هـ.

وثيقة نادرة مرتبطة بخورشيد باشا

ومن منظور آخر وفي سياق حديثنا (خورشيد باشا) يمكننا القول أن التقارير الرسمية التي كتبها قواد الحملات المصرية على الدولتين السعوديتين الأولى والثانية.. تعدّ من أهم المصادر التي تصور تاريخ تلك الفترة وما جرى فيها من أحداث تصويرًا دقيقًا.. قائمًا على المعاينة والرصد.. كما أنها تتناول أمورًا لا نجد مثلها في المصادر التاريخية التي اهتمت بالأحداث والوقائع التاريخية.. وعلى الرغم من أنها ربما كُتِبَت من وجهة نظر القوى الغازية وهو الجانب المصري.. إلا أنها تبقى مادة خصبة.. تمدنا بالكثير عن أحوال تلك الحملات وغيرها من أمور قيادة الجيش وخلافه.. وبالرغم من كوننا قد استعرضنا مجمل أحداث الحملات

المصرية على بلاد الحجاز.. إلا أننا لابد أن نتوقف عند مضمون تلك الوثيقة فهي بلا شك تساعدنا كثيراً على فهم ملامح الصورة لركن من أهم أركان تجربة (محمد علي)..

الوثيقة عبارة عن تقرير كتبه خورشيد باشا بصفته قائد الحملة المصرية التي أنهت الدولة السعودية الثانية.. في طورها الأول.. والتقرير أو الوثيقة[1] محفوظة حالياً في دار الوثائق القومية بالقاهرة.. تحمل رقم (١٦٣) في المحفظة رقم (٢٦٧)..

الوثيقة مؤرخة بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ الموافق ١٠ أغسطس ١٨٣٩م..

فبعد اندحار القوات العثمانية أمام جيوش محمد علي.. توصل الطرفان إلى معاهدة كوهاتيه كما ذكرنا من قبل.. وبعد المعاهدة أخذ محمد علي يوسع نفوذه ومواقع سيطرته.. تمهيداً لمفاوضات أخرى.. يقضم فيها قضماتٍ أخرى من أراضي الدولة العثمانية.. لذلك شمر عن ساعد الجد.. وأرسل حملة عسكرية يقودها إسماعيل بك.. وبصحبته الأمير خالد بن سعود.. لتُحكم سيطرتها على أراضي الدولة السعودية الثانية.. ثم جرت المفاوضات التي كان محمد علي يؤملها.. في أوائل سنة ١٢٥٣هـ.. اتفق الطرفان فيها على أن تكون مصر.. والجزيرة العربية لمحمد علي وراثةً.. والشام مدة حياته.. أي أنه بذلك وصل لمبتغاة الأول.

نص الوثيقة:

إنّ بلاد نجد القصيم.. ويتبعها ثلاثة وأربعون قرية.. وجبل شمر ويتبعه تسع عشرة قرية.. الوشم ويتبعه اثنتا عشر قرية.. والسدير ويتبعه عشرون قرية.. فجميع بلاد نجد عبارة عن مئة وثمان وستين قرية..

---

(١) نشرها الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم في كتابه (محمد علي وشبه الجزيرة العربية) وننقل مضمون الوثيقة عن كتاب "من وثائق الأرشيف المصري في تاريخ الخليج والجزيرة العربية"للدكتور عبد العزيز عبد الغني إبراهيم.. التقرير أو الوثيقة الأصلية كُتِبت باللغة العثمانية.. وتمت ترجمته وقتها للغة العربية وإن كان أسلوب مترجمها ضعيفاً وركيك كما هو واضح من كثرة أخطاءه في بديهيات اللغة.. وتحتاج ي مجملها المزيد من التأمل لفهم المعنى المقصود.

DAYS OF MOHAMED ALI

والأحساء يتبعها أربع وأربعون قرية.. والقطيف يتبعها سبع عشرة قرية.. وعاداتهم القديمة أنهم يعطون من السنة إلى السنة عن كل مئة صاع خمسة صيعان من الغلال.. وعن كل مئة آقة[1] من التمر آقة.. والصاع معناه أنّ كل صاعين ونصف يساوي ربع مصري..

وإيرادات الأحساء والقطيف من الجمرك أسبوعيًا هو ثلاث مئة فرانسة إلى أربع مئة..

وقد لاحظنا أنّ البلاد وإن كانت تحت استيلائنا.. والأمان مخيَّم عليها.. ولكن كل شخص وسلاحه معه حتى اليوم.. وبما أنّ في كل بلد بعضًا من الرجال المعتمدين.. الذين خدموا في أيام عبد العزيز.. وسعود.. وعبد الله.. وتركي.. وفيصل.. فإنّ إبطال عاداتهم القديمة.. وإيجاد ترتيب آخر.. يغيّر الحالة متعذر.. ولذا رأينا أن نُبقي عاداتهم القديمة كما هي عليه..

البند الثاني

ولقد أرسلنا لكم كشفًا ضمن كتابنا هذا بالزكاة التي أخذت منهم حسب عاداتهم القديمة.. وكشفًا آخر بالغلال التي اشتريت.. ومتى ما ضبطنا الأمور على الوجه اللائق فيما بعد.. وصار ترتيبها على الوجه المناسب.. وأخذنا البدو تحت الطاعة بكل ضبط وربط.. المظنون أنه يحصل من نجد مئة ألف.. أو مئتيي ألف فرانسة.. أو أقل أو أكثر.. وهذا محتاج لعدة سنوات.

البند الثالث

إيرادات حكام نجد.. هو ما يدفعه أكثر البدو من الزكاة.. على الوجه الحق.. من العوائد التي تؤخذ من القوافل القادمة والرائحة بينها وبين العراق.. والبصرة..

(١) أي أوقية وهي وحدة الوزن المعروفة.

DAYS OF MOHAMED ALI

وبغداد.. والكويت.. وسوق الشيوخ.. وبلاد الحرمين.. واليمن.. هذا وإذا لم يحصل عدوان في طريق نجد..

أمّا في عهد سعود فكان أكثر مكسبه من حجاج العجم.. بقدومهم من طريق بغداد.. فلا يتعرض لهم احد بسبب سعود.. فإذا حجوا وأرادوا العودة فإنهم يدفعون لسعود عن كل شخص عشرة أو خمسة عشر ذهب (٣٥) يلديز.. وهي العوائد التي سيدفعونها للبدو.. فكان يربح سعود من هذه العوائد شيئًا كثيرًا..

ولكن عرب نجد متفرقون اليوم.. وكل واحد منهم في جهة.. لعدم اطمئنانهم إلينا وبالرغم من ادعائهم باللسان والتحذير أنهم خدم لنا.. إلا أنهم يقفون منا بعيدًا.. فلذلك لم يدفعوا الزكاة بعد.. ونحن لم نطلبها.. وإذا فرضنا أنّ حجاج العجم جاءوا على عوائدهم القديمة فربما قتلهم العُربان في الطريق.. وإذا ضربوا أو قتلوا يزول ما هو عائد للدولة المصرية.. وأنّ بعض العجم ولو أنهم طلبوا منّا أن يذهبوا للحج من الجهة التي تحت حكمنا.. ولكننا لاحظنا هذه النقطة فلم نرخص لوكلاء العجم الذين هم من أولاد العرب لذلك.. وأنّ هذه المنفعة الميرية.. المذكورة أعلاه منوطة بتأمين الطرق وإصلاح حال العرب.. وإننا من الآن فصاعدًا ناظرون لتوطيد الأمن في الطرق ومتابعة النظر..

وهذا منوط بوقته وزمانه بمشيئة الله تعالى..

البند الرابع

إنّ سبب إرسال الفداويين من أهل نجد إلى بلادهم هو أنه كما ذكرناه آنفًا.. والحالة هذه أنّ أهل نجد تحت السلاح.. وهؤلاء الفداويون كانوا يستخدمون من طرف حكام نجد لأجل أخذ الرسوم من البدو الذين لا يعطون الزكاة.. ولأجل تسكين البلاد.. ولمنع البدو الذين لا يسوقون الرواحل المطلوبة منهم.. من أخذ ما هو مدار لقوتهم.. وبما أنهم[يعرفون عادات بعضهم بعضًا.. فإنهم يألفونهم.. ومادام الحال كما ذكر إذا وضعنا عسكرًا.. فنظرًا لخشونة طباع الطرفين

نحن وهم.. فإنه ينشب القتال فيما بينهم ـ كما هو الواضح ـ والآن نحن على أهبة التخلص من أولئك الفداويين.. وإنّ ما يقتضي لأولئك الفداويين يأخذون جانبًا من مدار معيشتهم منا وجانبًا منه من البلدان.. وهذا هو سبب استخدامهم..

البند الخامس

إنّ من البلاد العامرة في نجد عنيزة.. وسبب عمرانها لكون أهلها رجال تجارة.. وهم على الدوام في حالة سفر.. ما بين بغداد.. والبصرة.. والكويت.. والبحرين.. وأرض الحرمين.. لأجل التجارة.. ووادي الفُرع هو عبارة عن: الحوطة.. والحريق.. وحلوة.. ونعام.. وكل هذه البلاد عامرة.. ولكن طرقها حرون.. وعن يمينها ويسارها الجبال الشامخة.. ونخلها مقارب لنخل الأحساء.. وأهاليها كثيرون ومحاربون.. ونظرًا لقوّتهم وكثرة أسلحتهم.. وأنهم وإن كانوا أُدخلوا تحت الطاعة والانقياد ولكنهم لا يثقون بنا ـ مع أنهم تحت الأمان ـ .. وسبب عدم ثقتهم بنا وقعة إسماعيل بك.. فهم على خوف منّا.. لذلك فإن كان يؤمل منهم منفعة ما فإنما ليكون بمعاونتهم.. لسبب ما ذكرناه آنفًا.. ولكوننا نصبنا زويدًا أميرًا عليهم.. وأرسلنا معه مقدارًا من الفداوية.. وإن شاء الله يحصل لنا منهم النفع..

البند السادس

إنّ حضرة صاحب الدولة والسر عسكر عنوان الظفر لما شرَّف أراضي نجد أدب أهل نجد بالسيف.. وقتل منهم رجالاً كثيرة.. ولكن أهل نجد ـ والحال على ما ذكر ـ راضون عن أفندينا السر عسكر.. وشاكرون له.. وبينما أهل نجد في هذه الحيرة وإذا بالمرحوم حسين بك وحسن بك جاءا وجعلا نجدًا خرابًا.. وكان يعطي الأمان لبعضهم فإذا جاءوا عنده قتلهم.. فلهذا كان من وراء ذلك خسائر كثيرة.. ولم يكتف بما فعله بالرجال.. بل تجاوز في عدوانه حتى وصل إلى النساء.. ومن أجل ذلك أصبح أهل نجد مسلوبي الأمان والاطمئنان لنا.. ولم يزالوا

DAYS OF MOHAMED ALI - 2014

في خوف.. وإنّ منهم من هو حتى اليوم في أطراف العراق.. فإذا كلفناهم اليوم بشيء خارج عن حدود القانون فإنّ فرارهم قريب مُحقق بعد المقاتلة.. وإنّ تحصيل المنفعة منهم محتاج لوقت طويل.. وكما أنّ جزيرة العرب بيد الحكومة المصرية فإنّ الاستيلاء على نجد أمر لا بد منه..

البند السابع

إنّ آل سعود لما حكموا نجدًا حكموها باسم الدين.. فإنهم نظموا الإيرادات وفق الشريعة.. فكانوا يأخذون الزكاة عن الغلال خمسة أرادب عن مئة إردب.. وخمسة قناطير من التمر.. عن مئة قنطار..

وإذا كان في بلدة رجل غني فقد كانوا يطلبون منه زكاة المال.. ويعبّرون عنه بزكاة العروض.. وذلك الغني يعطيهم ما تسمح به نفسه.. فإذا ذهبوا لغزوة فانتصروا فيها أخذوا عن كل خمسة من الإبل جملاً.. وعن كل خمس رؤوس من الغنم.. خروفًا.. فأمّا في أيام سعود فقد كان وارده من البحرين.. وعمان.. ومسقط.. وصنعا.. وغيرها من مختلف الجهات.. ومن الشريف حمود أبي مسمار في اليمن ما بين خمسين ألفًا إلى ستين ألفًا من الفرانسة في السنة.. كما كان يأخذ من الجهات المذكورة نقودًا كما ذكرنا.. وكان وارده من الأحساء ومن البدو يبلغ تارة مئة وخمسين ألفًا من الفرانسة.. وتارة مئتي ألف.. وكان يحصل له وارد من حُجّاج العجم كلي وجزئي.. بحسب كثرتهم وقلتهم.. وما ذكرناه فهو بعد التحقيق فلا كذب فيه.. لأنّ هذه الوضعية شيء من الظهورات.

وبسبب العصيان الذي يحصل في نجد في بعض الأحيان.. فقد كان له قانون يسمى بيت المال والنكال.. فتارة يطبّق.. وتارة لا يطبّق.. وهذا من جملة الظهورات.. فلا يمكن إعطاء الجواب القطعي عنه..

أمّا قرى نجد فإنّ وارداتها ما ذكرنا آنفًا.. وهو الرسوم التي تؤخذ من التجار المتمردين.. وذلك شيء جزئي.. ولم توضع على قرى نجد مطلوبات بجميع

أنواعها.. لأنها ضعيفة الحال من جهة.. ومن جهة أخرى أنّ إدارة تلك الجهات الكثيرة إنما يكون إذا صارت نجد حضرية.. فمن أجل ذلك أنّ آل السعود لم يضعوا عليها تكاليف.. ولا وضعوا لها قوانين غير دعوتهم للخدمة العسكرية.. وهم يعاملون حسب عاداتهم القديمة على هذا المنوال..

البند الثامن

إنّ بسبب ما ذكرناه عما كان في أيام حسين بك.. وحسن بك.. من الأمور.. فإنّ أكثر أهل نجد منهم من سرح إلى بغداد.. ومنهم من ذهب إلى البصرة.. ومنهم من قصد سوق الشيوخ.. ومنهم من توجه نحو الكويت.. والبحرين.. وعمان.. إمّا بأهله وعياله.. وإمّا بمفرده.. ليس معه غير سلاحه.. وإنّ أكثر أهل نجد اليوم في تلك الجهات.. وأمّا من ترك أهله في نجد فإنه إن بلغه أنه حدث حادث في نجد أخذ سلاحه ويمم نجدًا للقتال.. حتى إذا فرغ منه عاد من حيث أتى.. حتى إنه في محاربة فيصل حدث أنّ الذين حاربوا جاء فريق منهم من هنالك.. وبعد ما انتهي القتال عادوا راجعين.. وإنّ الموجودين منهم في نجد من مدة هم على هذا المنوال.. إلا أنهم خارج بلادهم.. والقسم الآخر يده على أذنه وأذنه على يده (كناية عن سرعة التأهب للتروح).. فإذا رأى أنه لا طاقة له بالمقاومة انسحب.. وذهب إلى إحدى تلك الجهات.. مترقبًا الفرص.. فإذا كان الأمر أي كأنه دار ذات بابين.. فإنّ الأمور التي يراد إجراؤها حكوميًا ليست بالسهلة.. بل هي أمور تحتاج إلى وقت كما لا يخفي..

البند التاسع

عمران نجد وخرابها منوط بكثرة الأمطار وقلتها.. فإن هطلت بكثرة كان العمران.. وإلاّ كان الجدب والقحط.. حيث تنضب الآبار فلا يبقى فيها ماء.. ومن عجائب قدرة الله تعالى أنّ الأمطار التي توالى هطلها منذ ست سنوات أو سبع.. لم ترو الأرض ريًّا كافيًا.. فزاد الحال سوءًا.. سنة بعد سنة.. وفي هذه السنة لم

يبق ماء بالكلية في قرية عيينة من قرى العارض.. ولا في القرى الثلاث التي في طرف السدير.. فتركها أهلها.. وذهبوا إلى الجهة السفلى منها..

فلمّا يكون الرخاء والخصب تكثر الزكاة.. ويكثر الأخذ والعطاء.. لكثرة المتعاطين.. لذلك تكثر المنفعة الميرية من ذلك..

البند العاشر

بما أنه لم يمكن العلم إلى يومنا هذا بقدر الإيراد الذي يحصل من نجد فإذا جاء الكتبة الذين طلبناهم من مصر خصيصًا كتابًا لهذه المسائل.. وأقمنا عليهم مباشرة فيقيد الخراج الذي يؤخذ من البدو.. ومن الغلال والتمر الناتجة.. وما يؤخذ من أهل نجد في دفاتر الحسابات.. ثم يقدم شهرًا فشهرًا حيث يعلم مقدار الإيراد.

البند الحادي عشر

معنى نجد قوة البدوي وقدرته.. لأنّ أولئك البدو إذا صار إدخالهم تحت إطاعة الحكومة.. كما يجب أن يجبى منهم الزكاة.. مبلغ سبعين إلى ثمانين ألف فرانسة.. وإذا سلمت القرى من شرهم زادت عمرانًا.. ويحصل مقدار من الإيراد من الحضر ومن البدو..

وإنّ البدو جميعهم وإن كانوا اليوم تحت الأمان بصورة رسمية ولكن الحقيقة أنهم يعطون المقدار الذي يريدونه.. وما لا يريدونه يرفضونه.. قائلين: لا يكون هذا.. وهذا جوابهم الشافي.. وهذه مناطة على ضبط وربط المصالح المذكورة.. كما أنّ ضبط أمور البدو وربطها تحتاج إلى القوة والوقت..لأنّ عرب قحطان عبارة عن عدة قبائل كبيرة.. ومساكنهم من الرس حتى وادي الدواسر إلى أن تصل إلى عسير.. وهو المعبّر عنه عندهم بالجنوب أي الطرف القبلي لنجد.

ويشاركون جهات: الرانية.. والخرما.. وتربة.. وبيشة.. وطرف نجد القبلي.. الذي هو الدلم.. والعارض.. ووادي الخرج.. والحريق.. والأفلاج.. ووادي الدواسر.. فإذا

DAVS OL MOHAMMED ALI

لم يدخل أولئك العرب تحت طاعة الحكومة الدخول اللائق.. فلا يرجى منهم أيّ منفعة.. فضلاً عن الضرر الذي يعود على تلك الجهات.. وهذا أمر معلوم..

وعتيبة أيضًا قبيلة كبيرة.. ولها توغل وتوسع حتى جهات مكة.. والطائف.. والمدينة.. ومن جنوب نجد.. إلى الرس.. والشقراء.. والشعراء.. وقرى الدوادمي.. وحتى ما يجاور مكة.. والطائف.. والمدينة.. لهم اشتراك مع أهلها في كل أمر.. فضبط أمرهم وأمور قحطان وربطها لا يمكن أن يكون بقوة نجد فحسب.. بل هو متوقف على معاونة أرض الحريق.. فإذا حصلت المعاونة فإنّ المتعة التي تحصل سواء من جهة استخدام أهلها.. أو كانت من جهة أخذ الزكوات منهم..

وقبيلة مطير قبيلة كبيرة أيضًا.. وهي وإن لم يكن لهم جهة معينة في أرض نجد ولكنها بسبب كونها من القبائل الكبيرة القوية.. فإنها بقوة سواعدها تسيِّر أنعامها ومواشيها.. في مراعي ديار قحطان.. وعتيبة.. وعنزة.. وتأخذ الكيل من قرى نجد ومن الأحساء والبصرة.. وتروح وتغدو ما بينها.. وهم يتقاتلون ويتضاربون مع أولئك القبائل.. من أجل المراعي.. والكيل.. بمعاونة حكام نجد.. فتارة يتغلَّبون وتارة يُغلبون.. وكلاهما بمعاونة حاكم نجد.. وهذا هو حالهم..

أمّا عنزة فهي عبارة عن قبائل كثيرة.. فيها من هو في جهة الشام.. وفيها من هو بجهة بغداد.. وقسم منها في نجد.. ومساكن هذا القسم خيبر القريب من المدينة المنورة.. والحناكية.. ومن حدود جبل شمر حتى القصيم.. ولهم اشتراك في القصيم.. لأنّ الحضريين يدَّعون أنهم من عنزة.. وقاعدة قانونهم على هذا الوجه.. وهم ينتقلون ما بين الجزيرة التي بجوار بغداد.. حتى تلك النواحي.. على هذا المنوال.. ويسمح لهم بذلك.. وأحوالهم هي عبارة عما ذكر.. وحصول الفائدة منهم متوقفة على استيلائنا على الشام والعراق بتعب زائد..

وقبيلة شمر قبيلة كبيرة أيضًا.. وهي أكثر عددًا من عنزة.. وموطنهم الأصلي جبل شمر.. ويسكنون في الطرف الشمالي من الجزيرة.. المسماة سفوف.. في

جوار بغداد.. وهم معدودون أنهم في حكم بغداد.. والتابعون إلى نجد هم أهل جبل شمر.. ويبعد عن ذلك المحل (سفوف الجربة) مسافة أربع عشرة مرحلة.

وحيث إنّ الساكنين حتى منتصف الطريق هم من عرب جبل شمر.. فإنهم تحت حكم عبد الله بن رشيد.. والنصف الآخر تحت حكم شيخ سفوف الجربة.. وهو الذي جاء في هذه السنة من إستانبول.. وبما أنّ العرب المذكورين ينقسمون إلى قسمين لا يصعب الهجوم عليهم..

وحيث إنّ عبد الله ابن رشيد منهم فإنه يأخذ منهم مقدار الزكاة بمساعيه.. ويستفاد من استخدامه نوعًا ما.. وأولئك العرب (عرب شمر) وإن كان يؤمل منهم منافع جمة.. وفوائد كلية.. ولكن من حيث إنّ ديارهم مقسومة قسمين.. فإذا طبّقنا عليهم من هذا الطرف.. انصرفوا ذاهبين إلى سفوف الجربة.. في الجزيرة المذكورة.. وإذا ضُيّقوا من تلك الجهة.. شدّوا رحالهم.. وجاءوا إلى جبل شمر.. وإنّ مشيخة سفوف الجربة بسبب حصولها من إستانبول كما كانت عليه من قبل فقد عاهد شيخها الدولة (العثمانية) على أن يخدمها بعشرة آلاف جمل.. وألف رأس من الخيل.. يقدّمها.. وبقي شيخًا كما كان عليه من قبل.. وجاء إلى محله وطلب من عرب شمر المقدار المطلوب.. فلم تجب العرب طلبه.. وقامت ثلاث قبائل منهم وجاءوا إلى جبل شمر.. الذي هو بطرفنا.. وشرذمة منهم نزلوا على عيسى.. حاكم سوق الشيوخ.. ومن أجل ذلك ما أمكن غير الحصول على ألف أو ألفي جمل.. ومئة رأس من الخيل.. من أصل المطلوب.. وسبب ذلك ما قلنا آنفًا..

وإنّ قبيلة عنزة قريبة منهم.. فإذا ضيّقنا عليهم لا يمكن أن نحصل منهم على فائدة تذكر.. نظرًا لعلاقتهم بالشام والعراق..

وقبيلة السبيع.. والعجمان.. وسهول.. وبني خالد.. والدواسر.. وبنو هاجر.. هم من العارض إلى وادي الخرج والأفلاج في الطرف الشمالي من وادي الدواسر.. وهم متقلبون غادين رائحين في الوديان والجهات.. التي في نهاية جزيرة البصرة.. منتهين

إلى الأحساء.. والقطيف والكويت.. وهم معدودون من أهل تلك الجهات.. وتعدّ تلك الديار ديارهم.. وهؤلاء قبائل كبيرة.. وهم أقوياء.. ولكن جفاة غلاظ.. ومحل معيشتهم في الأكثر الأحساء.. والقطيف.. وهم قائمون بالخدمة في تلك الجهات.. ومنفعتهم لنجد قليلة.. ولكن ضررهم كثير..

وبما أنّ لهذه الأجناس المتباينة حكومات مختلفة ما أمكن أخذهم تحت الطاعة.. كما يجب.. فإذا أمكن الاستيلاء على تلك الجهات التي يحتلونها.. فإنّ الأمل أن تكون الفائدة منهم كثيرة.. ونحن نعاملهم بالمراوغة والحيلة.. نظرًا للمحذورات التي ذكرناها..

سيدي سني الهمم.. صاحب الدولة والعاطفة:

بناءً على المحذورات التي ذكرناها في هذا التقرير عن البدو والحضر.. فإنها وإن تكن كلية.. إلا أنّ إيراد نجد منهم وبمعرفتهم حاصلة.. وحيث إنّ أحوالهم كما بسطناها ما أمكن إعطاء تقدير حقيقي عن الإيراد.. لأنه بسبب بعض الضرورات محتاجة للوقت.. وبعض الجهات يلزم إدخالها تحت إدارة الحكومة المصرية.. وحيث هذا محتاج للوقت.. وعندها تحصل المنفعة..

وهذا ما بادرت لعرضه ملاحظًا ما ذكرته سيدي.

في ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٥ – ١٠ أغسطس ١٨٣٩

مير ميران.. خورشيد

ملاحظات على حملة محمد علي على الحجاز

ومن تقرير خورشيد باشا تتجلى كثير من ملامح صفحة الوجود العلوي لمصر وللجيش المصري في بلاد الحجاز يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

- لم تكن تلك الحملة حملة تدمير.. أو إجهاض قيام دولة وسلطة.. مثل الحملات السابقة..
- كانت الحملة تضع نصب عينيها إنشاء كيان يرتبط بسلطة محمد علي باشا..

DAYS OF EGYPT

ومن أجل ذلك نرى خورشيد باشا يقوم بسبر الأحوال النجدية.. ليتمكن من إقامة حكومة مستقرة.. تجني المنفعة المرجوة من نجد.. ولا تكون عبئًا ثقيلاً على حكومة مصر..

- واضح أن معرفة خورشيد باشا بأوضاع نجد كانت جيّدة رغم قصر المدة التي قضاها فيها.. ولاشك أنّ تلك المعلومات التي ذكرها في الوثيقة استقاها ممن أخلص له من رجال نجد.
- يدل سرده الصحيح لحكام الدولتين السعوديتين.. الأولى.. والثانية.. على إطلاع ومعرفة تامّة.. بالأحوال السياسية النجدية.. مما يعطي المصداقية لكثير من المعلومات الواردة في التقرير..
- اهتم خورشيد باشا في تقريره بالإيرادات التي يمكن أن تُجبى من نجد.. حتى يتسنى له تقدير الفائدة المرجوة من الاستيلاء عليها.. وضمها إلى مملكة محمد علي باشا..

كانت سياسة خورشيد في حكم نجد هي الاحتفاظ ببعض الأمراء والقادة والفداوية.. الذين عملوا في الدولتين السعوديتين.. وقد ذكر منهم زويد مملوك الإمام تركي.. الذي عُيِّن أميراً على بلدان وادي الفرع.. وكان ذلك الإجراء ضروريًّا بالنسبة لخورشيد لعدة أسباب هي:

- معرفتهم التامة بالمناطق النجدية التي يديرونها.. فلا يخفي عليهم شيء من أمورها وأمور أهلها.. في الشدة والرخاء..
- إنّ لديهم القدرة على التعامل مع أهل نجد.. فهم منهم.. وقد خبروا طباعهم.. وطرق عيشهم.
- إنّ ذلك يعطي أهل نجد الأمان والثقة.. في حكم خورشيد.. فتقلّ القلاقل والاضطرابات.. وتنعدم الممانعة والرفض لهذا الحكم ..

- إنّ الحكم الجديد الذي يقف خورشيد على رأسه يُرجى له الاستمرار.. لذلك لا بد من الاعتماد على رجال يبدون تعاونًا مع خورشيد وقواده.. من أهل البلاد الأصليين.
- الاعتراف الصريح بأنّ القتل.. والغدر.. والخيانة.. والتعدّي على الأعراض هي أهم أسباب مقاومة الحكم الجديد.. لأنّ الثقة معدومة في قادة وجنود محمد علي.. والخوف من تعدّيهم وظلمهم قائم مستمر..
- القناعة التامة لدى خورشيد باشا بأنّ أهل نجد لن يتركوا سلاحهم.. حتى لو استتب الأمن.. وأنهم على استعداد دائم للقتال.. سواء من هُم في داخل نجد.. أو الذين يعيشون خارجها.. في المناطق المجاورة.. وبرر ذلك بانعدام ثقتهم بقادة وجند محمد علي.. بناء على ما سبق منهم.. من غدر.. وخيانة للعهود والمواثيق.. وإسراف في سفك الدماء..
- بيَّن خورشيد أهمية الدين في الحياة النجدية.. وأنّ أهل نجد لا يمكن أن ينقادوا إلا لمن يحكم بالدين.. ويتخذه شعارًا ودثارًا له.. فيُسيّر الحياة النجدية به.. ولهذا السبب أظهر تقديرًا واحترامًا للعلماء.. وحرص على متابعة الشؤون الدينية في نجد مثل تعيين خطباء الجمع في البلدان النجدية.. كما في الوثيقة المرفقة..

شغلت شؤون القبائل حيّزًا كبيرًا من التقرير.. لأسباب عدة هي:

- أنّ القبائل سبب رئيس من أسباب اضطراب الأمن في نجد.. وأنها متى ما دخلت في الطاعة.. زاد عمران البلدان وزاد إيرادها للخزينة..
- أنّ زكاتها من الإبل توفر وسيلة النقل التي يحتاجها جيش خورشيد.. فإذا تم إخضاعها تم توفير الإبل من تلك القبائل.. التي تؤدّي الزكاة على إبلها.. وتبيع قسمًا آخر منها على خورشيد.

DARSOLIMAN

- الخطورة الكبيرة على الحجاج من هذه القبائل.. فهي إن لم تدخل في الطاعة فسوف تضرب إتاوة على الحجاج المارين بأراضيها.. وقد يعتدون عليهم.. أمّا إذا دخلوا في الطاعة.. فسوف تكون تلك الإيرادات من نصيب حكومة خورشيد.. وتوفر دخلا كبيراً لها..
- أنّ القبائل دائمة التنقل.. شديدة المراس.. مما يجعل قتالها عسيرًا.. ومكلفاً.. وذا خطر كبير.. وقد كانت التجارب السابقة للجند المصري مع قبائل نجد ماثلة أمام خورشيد..
- قدَّر إيرادات نجد بأنها ما بين مئة.. ومئتي ألف فرانسة.. وهو مبلغ ليس بالكبير.. بل إنه لن يفي بتكاليف حكومة خورشيد.. وخالد بن سعود..
- حرص خورشيد على التخلص من الفداويين.. نظرًا لما يسببونه من مشاكل مع جنوده.. ولكن ذلك يحتاج إلى وقت.. لأنّ الحاجة إليهم ماسة.. وضرورية..
- أقرّ خورشيد بأنّ حكومته في نجد تكلّف أهل نجد بما هو خارج عن حدود القانون.. أي بأعمال السخرة.. وأنّ ذلك سبب عصيانهم.. وقتالهم لجيوش محمد علي.. وتركهم أرض نجد هربًا من ذلك..
- حاول خورشيد أن يوهم سيّده محمد علي أنّ أهل نجد راضون عنه كل الرضا.. وأنّ سبب خراب نجد حسن بك.. وحسين بك.. اللذان جعلا نجدًا خرابًا يبابا.. ولم يملك الشجاعة.. ويكن جريئًا.. ليقول إنّ أوامر محمد علي لهما هي أتى سبّبتْ ذلك الخراب والدمار.. وسببت انعدام الثقة بقادته.. وجنده..
- بيّن التقرير أنّ انقياد القبيلة لشيخها غير متحقق في كل الظروف.. كما في التزام صفوف الجرباء للدولة العثمانية.. حيث لم ينقد له أفراد

القبيلة.. بل تفرّقوا عنه.. وقصد بعضهم موطنهم الأصلي.. في جبل شمر.. وقليل قصدوا سوق الشيوخ.. جيرانًا لقبيلة المنتفق..

- ركز خورشيد في ثنايا تقريره على أنه يحتاج إلى مدة طويلة.. ليتمكن من تثبيت حكومته.. وتحديد إيراداتها.. ومصروفاتها..وذلك يدل على أمرين هما:
  - تقدير خورشيد للمقاومة التي سيواجهها.. من حاضرة نجد.. ومن القبائل.. وأنّ أهل نجد لن يذعنوا بسهولة لحكمه.. وقد أطنب في ذكر ذلك في ثنايا التقرير..

وفي مجمل التقرير كان من الواضح تخوف خورشيد باشا الشديد من أن تلحقه لائمة ما من محمد علي.. على طول المدة.. وذلك قد يجلب له المتاعب.. إن لم يكن القتل كما كان ذلك سائدًا في ذلك الزمان..

❖❖❖

DAYS OF MOHAMED ALI

سليمان باشا الفرنسى

أو الكولونيل سيف.. اسمه الحقيقي قبل إشهار إسلامه «جوزيف انتيلمى سيف».. وُلِدَ بمدينة «ليون» بفرنسا.. في إبريل سنة ١٧٨٧.

كان راجل عسكرياً من الطراز الأول.. جاداً.. لم يكن يهتم في حياته إلا بعمله وعسكريته فقط.. وُصِفَ بأنه كان عريض المنكبين.. ضخم الجثة.. مفتول العضلات.. عنيد.. خشن الطباع.. يرجع إليه الفضل الأول في تطوير الجيش المصري.. وتحويله من جيش تقليدي لا يعرف سوى النُظم القديمة لجيش نظامي حديث.

يُروى عنه أنه ذات مرة خرج مع جنوده في رحلة ترفيهية.. وفي وقت الغذاء أرسل إليهم عباس حلمي الأول ما لذ وطاب من أصناف الطعام.. فلما رأى سليمان باشا أصناف الطعام أصر على إعادته للخديوي.. وقال: هو عباس باشا ما يعرفش أننا عسكر.. لا نأكل سوى أكل العسكر !.

انضم للجيش المصري سنة ١٨١٩ كمدرب للمُشاة في أسوان.. وهناك كما قلنا من قبل عهد إليه محمد علي بتأسيس أول مدرسة حربية.. نظام العسكرية النظامية في مصر الحديثة.. وشارك في معظم حملات محمد علي باشا العسكرية.

كان قبل مجيئه لمصر ينتمي لأسرة متوسطة.. وكان الابن الثاني بين خمسة أشقاء.. التحق بالبحرية الفرنسية سنة ١٨٩٩ دون أن يكمل عامه الثالث عشر.

وكان متميزاً في سلك العسكرية.. وذات مرة اشتبك مع ظابط من رؤسائه واعتدي عليه بالضرب.. فقُبِضَ عليه.. وقُدِمَ للمحاكمة العسكرية.. وحُكِمَ عليه بالإعدام.. لكن لحسن حظه تدخل أحد النبلاء وكان اسمه «الكونت بول دلاى سيجور» يُقالُ إن سيف كان قد أنقذ حياته ذات مرة.. فتوسط له.. وأخرجه من تلك الورطة.. وعمل على إلحاقه بالجيش الفرنسي وكان وقتها في إيطاليا.

وعندما قامت الحرب بين فرنسا.. والنمسا وقع «سيف» في الأسر.. ثم أُطلاقَ سراحه.. وقضى حوالي سنتين خارج فرنسا حيث شارك في حملة نابليون بونابرت على روسيا سنة ١٨١٢ وأظهر شجاعة كبيرة جعلت نابوليون يلتفت إليه منه.. فتمت ترقيته سريعاً حتى أصبح «كولونيل».

وبعد فشل حملة نابليون على روسيا عاد الجيش إلى فرنسا.. وقُبِضَ على نابليون.. وتم نفيه.. فخرج سيف من الجيش.. وعمِلَ بالتجارة لكنه فشل في ذلك.

ولما سمع الكولونيل سيف أن شاه «بلاد فارس»[1] يطلب مدربين لجنود جيشه.. فأرسل لصاحبه كونت دى سيجور.. وطلب منه أنه يتوسط له عند الشاه فنصحه صديقه بأن يذهب إلى مصر عند محمد علي باشا.

الكولونيل سيف في مصر

وصل الكولونيل سيف مصر سنة ١٨١٩ ومعه خطاب توصية فاستقبله محمد علي.. وأُعجِبَ به.. وطلب منه أن يذهب إلى السودان لينقب عن الفحم الحجري فذهب إلى هناك لكنه لم يفلح في العثور على مناجم للفحم هناك.. فعاد ثانيةً إلى القاهرة.. وتصادف يوم رجوعه احتفالات الجيش المصري بفتح الحجاز.

(١) كانت وقتها تُعرف ببلاد فارس وليس إيران كما هو معروف حالياً.

DAYS OF MOHAMED ALI

وكان محمد علي باشا يفكر وقتها في توسيع مملكته.. ويحتاج بطبيعة الحال إلى تكوين جيش كبير منظم.. وكان محمد علي معجباً بتنظيم الجيش الفرنسي في مصر أثناء الحملة الفرنسية.. فتشاور محمد علي مع الكولونيل سيف.. وطلب منه أن يدرب الجنود المصريين على تلك النظم الفرنسية.. وطرق التحركات العسكرية الحديثة..

لكن هذا النظام الجديد لم يُعجب الجنود الأتراك واعتبروه بدعةً.. فتمردوا.. وتجمهروا عند قلعة القاهرة.. مطالبين محمد علي بإلغاء هذه النُظم.. فتعامل محمد علي مع الأمر بعقلانية شديدة.. ولم يضغط عليهم.. واكتفي بتدريب العساكر المصريين على النظم دي لوحدهم.

وعندما بدأ محمد علي في إنشاء مجموعة المدارس الحربية كل ذلك تحت إشراف الكولونيل سيف الذي كان قد غير اسمه إلى سليمان بعد إسلامه.. وأصبح يُعرف باسم «سليمان بك الفرنسي»..

ونظم سليمان بك جيش من العسكر النظامي قوامه ٢٥,٠٠٠ عسكري استخدمهم محمد علي فيما بعد في حروب الموره.. والشام.. وغيرها.

ولما قامت حرب الموره سنة ١٨٢١ كان سليمان بك الفرنسي هو الذراع اليمنى المصري لـ«إبراهيم باشا».. واستطاعوا الاستيلاء على جزيرة ميسولنجى سنة ١٨٢٥ فعينه إبراهيم حاكماً على تريبويتزا..

وبعد حرب الموره التي أنهكت الجيش المصري عاد سليمان الفرنسي إلى مصر مصطحباً معه فتاةً يونانية قيل أنه تزوجها هناك.

وبعد العودة لمصر عمل محمد علي إعادة ترتيب.. وإدخال إصلاحات جديدة في الجيش أوكلها جميعها إلى سليمان..

وفي سنة ١٨٣١ جرد محمد علي حملة عسكرية إلى عكا بقيادة «إبراهيم باشا».. فقاد سليمان بك الطوبجية.. وبعد محاصرة الجيش المصري لعكا تمكن من فتحها.. وتم القبض على واليها «عبد الله باشا» وترحيله إلى الإسكندرية.

وتوغل الجيش المصري في بلاد الشام.. دخل في معارك متعددة في أكثر من جبهة.. وأخذ سليمان بك جزءاً من القوات.. ودخل بهم في معارك ضارية.. لكنه انتصر فيها جميعاً على الأتراك خاصةً في معركتي ببلان بالقرب من حِمص.. ثم في الإسكندرونة.. وبعدها في قونية.

أُعجِبَ «إبراهيم باشا» ببراعة سليمان بك الفرنسي فمنحه رتبة باشا وأصبح اسمه «سليمان باشا الفرنسي»..

وتم تعيينه قائداً عاماً للجيش المصري.

وعندما سافر «إبراهيم باشا» للعلاج في فرنسا ذهب معه سليمان باشا ليزور بلده الأصلي ليون المدينة التي وُلِدَ بها.. وقضى عدة أيام مع أهله.. وأقاربه بعد أن غاب عنهم سنيناً طوال.. وعندما سافر «إبراهيم باشا» إلى لندن انتهز سليمان باشا الفرصة.. وأخذ يتجول في أوروبا.. من باريس إلى بلجيكا.. ثم هولندا.. ليطلع على أحدث التطورات الجديدة في المجال العسكري.. بعدها رجع إلى مصر.. ليرفع لمحمد علي باشا تقريراً عما رآه وعاينه من نظم وتطورات عسكرية حديثة في أوروبا.

DAR SOUAD AL-MISRIA

تمثال سليمان باشا الفرنساوي
أمام المتحف الحربي في قلعة القاهرة.

وبعد انتهاء تلك الحرب عاد سليمان بك إلى القاهرة ليواصل دوره بجوار محمد علي باشا.. ثم ابنه إبراهيم.. ومن بعده حفيده «عباس حلمي الأول» حتى توفي بالقاهرة في ١١ مارس سنة ١٨٦٠ بعد وفاة محمد علي بإثنتى عشرة عاماً.. ودُفِنَ في جبانة خاصة بمصر القديمة.

هو والخديوي.. وعرابي

في عهد الخديوي سعيد عُقِدت امتحانات ترقية للظباط تفوق فيها أحمد عرابي.. وكان ترتيبه الأول.. فطلب الخديوي من سليمان باشا أن يمتحنه بنفسه.. مرةً أخرى.. وبعد أن امتحنه وتيقن من تفوقه طلب من الخديوي ترقية عرابي لرتبة أميرالاي لأنه يعرف في العسكرية أكثر ممن يحملون هذه الرتبة.. فرفض الخديوي.. فقال له سليمان الفرنسي نرقيه على الأقل لرتبة بكباشي.. لكن رفض الخديوي أيضاً.. قال له يجب عليه أن يتدرج في الرتب حتى يعرف واجبات كل رتبة.

تزوجت ابنته من «شريف باشا»[1] رئيس النظارة المصرية.. وأنجب منها بنتاً تزوجت فيما بعد «عبد الرحيم باشا صبري» ناظر الزراعة.. وأنجبا الملكة «نازلي صبري» أم الملك فاروق.

(١) محمد شريف باشا سياسي مصري بارز ومن أصول شركسية.. تولى رئاسة الوزراء في مصر أربعة مرات.

تكريم سليمان باشا

كرمت مصر سليمان باشا بوضع[1] تمثال له في أشهر ميادين وسط القاهرة وعُرفَ الميدان باسمه «ميدان سليمان باشا» كما سُميَ الشارع المؤدي للميدان أيضاً باسمه.. كما قامت حكومة بلده الأصلي «فرنسا» أيضاً بتكريمه.. وأطلقت اسمه على أحد شوارع باسمه «ليون» اسمه «شارع الجنرال سيف..

❖❖❖

عمر مكرم

اسمه بالكامل عمر مكرم حسين السيوطي.. زعيم شعبي مصري.. وُلِدَ في أسيوط بصعيد مصر سنة ١٧٥٠ وتعلم في الأزهر الشريف.. تولي نقابة الأشراف في مصر سنة ١٧٩٣ وقاوم الفرنسيين في ثورة القاهرة الثانية سنة ١٨٠٠ كان له دور بارز في تولية محمد علي شؤون البلاد.. حيث قام هو وكبار رجال الدين المسلمين بخلع خورشيد باشا في مايو سنة ١٨٠٥ ..

(١) للأسف الشديد بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تم رفع التمثال مع غير، من تماثيل أسرة محمد علي باشا.. وكذلك تغيير اسم الشارع والميدان بشكل رسمي.. وإن بقي المصريون جميعهم يطلقون على الشارع والميدان مسماهما الأصلي مقترناً باسم «سليمان باشا» حتى اليوم.. وتم وضع التمثال أمام المتحف الحربي المصري في قلعة القاهرة.

DAYS OF MOHAMED ALI

وكان عمر مكرم يتمتع بمكانة عالية عند العامة والخاصة.. وظهر عمر مكرم.. كقائد شعبي عندما قاد حركة شعبية ضد ظلم الحاكمين المملوكيين «إبراهيم بك» و«مراد بك».. عام «١٧٩٥م» ورفع لواء المطالبة بالشريعة والتحاكم إليها كمطلب أساسي كما طالب برفع الضرائب عن كاهل الفقراء وإقامة العدل في الرعية.

تميزت حياته بالجهاد المستمر ضد الاحتلال الأجنبي.. والنضال الدءوب ضد استبداد الولاة وظلمهم.. وكان ينطلق في هذا وذاك من وعي إسلامي عميق وفذ وإيجابي.

وإليه يرجع الفضل الأول في تولى «محمد علي» حكم مصر بزعامته الشعبية التي قادها وفق مبادئ معينة في إقامة العدل والرفق بالرعية.. وكان من نتيجة ذلك أن تحملت الزعامة المسئوليات والأخطار التي واجهت نظام «محمد علي» الوليد.. ومنها:

- أزمة الفرمان السلطاني بنقل محمد علي إلى «سالونيك».. فاحتمى «محمد علي» به من سطوة العثمانيين
- الحملة الإنجليزية على مصر سنة «١٨٠٧» حيث قام «عمر مكرم» بتحصين القاهرة.. واستنفر الناس للجهاد.. وكانت الكتب والرسائل تصدر منه وتأتي إليه.. أما «محمد علي» فكان وقتها في الصعيد يتلكأ.. وينتظر ما ستسفر عنه الأحداث.
- إجهاض الحركة المملوكية للسيطرة على الحكم في مصر.. إذ رفض مساندة المماليك في تأليب الشعب ضد «محمد علي».

وفي هذه الأزمات الثلاث الكبرى كانت زعامة «عمر مكرم» تترسخ في وجدان المصريين.. وفي حملة «فريزر»

وعندما استقرت الأمور لمحمد علي خاف من نفوذ رجال الدين فنفاه إلى دمياط في ٩ أغسطس ١٨٠٩ وأقام بها أربعة أعوام ثم نُقِلَ إلى طنطا.. وتوفي بها عام ١٨٢٢.

وعن انتقال عمر مكرم من دمياط إلى طنطا يقول الرافعي:

(في أواخره شهر ربيع الأول ١٢٢٧ هـ - ٢٩ مارس ١٨١٢ انتقل السيد عمر مكرم النقيب من دمياط إلى طندتا[١] وسكن بها.. وسبب ذلك أنه لما طالت إقامته بدمياط وهو ينتظر الفرج[٢] وقد أبطأ عليه وهو ينتقل من المكان الذي هو فيه إلى مكان آخر على شاطئ البحر وتشاغل بعمارة خان أنشأه هناك والحرس ملازمون له فلم يزل حتى ورد عليه صديق أفندي قاضي العسكر فكلمه بأن يتشفع له عند الباشا في انتقاله إلى طندتا ففعل وأجاب الباشا إلى ذلك)..

❖❖❖

كلوت بك

اسمه الحقيقي: أنطوان كلوت..

وُلِدَ في «٧ نوفمبر سنة ١٧٩٣» بمدينة جرينوبل في فرنسا..

كان طبيباً فرنسياً عاش فترات طويلة من حياته في مصر بعد ما طلب منه محمد علي باشا تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري.. وبقى رئيساً لأطباء الجيش.. ومنحه رتبة البكوية تكريماً لجهوده التي نقلت مصر لتنهض طبياً بشكل كبير.

مدرسة الطب

كان من طليعة المدارس التي أسسها محمد علي مدرسة الطب.. وكان مقرها في منطقة «أبو زعبل» وكان ذلك سنة ١٨٢٧ وتولى إدارتها منذ بداية تأسيسها

(١) يقصد طنطا.

(٢) أي ينتظر موافقة محمد علي على رجوعه للقاهرة

DAYS OF MOHAMED ALI

الدكتور «كلوت بك» وكانت تعتبر آنذاك أولى مدارس الطب في العصر الحديث بالشرق كله.. وكان معظم الأساتذة الذين اشتغلوا بالتدريس فيها فرنسيين أو أسبان أو طليان.. أما الكتب والمراجع اللي استخدموها فكانت جميعها باللغة الفرنسية.. وكانت المحاضرات تترجم للغة العربية.. وشملت الدراسة بالمدرسة أقسام «التشريح.. الجراحة.. الأمراض الباطنية.. علم الصحة العامة.. الصيدلة.. الطب الشرعي.. الفيزياء.. الكيمياء».

مدرسة الصيدلة

ثم أمر محمد علي ببناء مدرسة أخرى خاصة بالصيدلة بجوار مدرسة الطب.. وكان بيتبعها حديقة لزرع كافة النباتات الطبية.

وفي البداية تم اختيار ١٠٠ طالب للدراسة بالمدرسة كان كل واحد فيهم يتقاضى راتباً شهرياً قيمته ١٠٠ قرش بالإضافة لنفقات الطعام الذي كان يأتيهم من الأزهر.

مستشفي أبو زعبل

ثم تم إنشاء مستشفي تعليمي خاص تابع للمدرسة حمل اسم «مستشفي أبو زعبل» كان يضم ٧٢٠ سرير..

القصر العيني

ثم تم نقل المدرسة والمستشفي من أبو زعبل للقاهرة سنة ١٨٣٧ لمقرها الجديد بالقصر العيني.

كان كل ذلك وراءه كلوت بك.. تفكيراً.. وتخطيطاً.. وإدارة.. وكان الرجل مخلصاً وومتميزاً تماماً في عمله فأبدع فيه.. واستطاع في سنوات وجيزة أن يخرج للنور أول دفعات من المصريين تحمل لقب أطباء بمعناه العلمي في العصر الحديث.

كما قام كلوت بك بوضع مؤلفات طبية كثيرة.. وكان يتخذ من طبيب اسمه محمد الشافعي مترجماً دائماً له.. ومن أشهر كتبه الطبية التي وضعها بمساعدة مترجمة الخاص باللغة العربية:

- «بواكير الطب الحديث» وهو من أهم الكتب الطبية ويحتوى على معلومات في مختلف فروع الطب
- «القول الصريح في علم التشريح» طُبِعَ لأول مرة سنة ١٨٧٢
- «مبلغ البراح في علم الجراح»
- «نبذة عن التشريح المرضى» طبع سنة ١٨٧٦

بعد وفاة محمد علي آثر العودة إلى بلاده فرنسا.. حيث تُوفُيَ هناك بمارسيليا في ٢٨ أغسطس ١٨٦٨..

❖❖❖

DAYS OF MOHAMED ALI

رفاعة الطهطاوي

من لا يعرف هذا الاسم؟

لا أحد..

فهو من أشهر رجالات عصره.. ومن أهم من ساعدوا على نجاح تجربة محمد علي.. ومن أهم رموز النهضة المصرية الحديثة.. وأحد جسور عصر التنوير في مصر.

اسمه بالكامل: رفاعة رافع الطهطاوي.. من مواليد ١٥أكتوبر ١٨٠١ بطهطا محافظة سوهاج.. تخرج من الأزهر الشريف.. وسافر سنة ١٨٢٦ في أول بعثة تعليمية مصرية ذهبت إلى فرنسا كإمام ورجل دين مرافق لطلبة البعثة.

لكنه كان صاحب علم ورغبة طموحة في اللحاق بركب زملاءه وأخذ حظه هو الآخر من التعليم.. فتعلم الفرنسية.. وتفتحت أفاقه على الثقافة الأوروبية بكل ما تتميز به من تقدم علمي.. وثقافي واجتماعي..

وبعد أن عاد إلى مصر تم تعيينه سنة ١٨٤٢ مديراً لقلم الترجمة الذي أنشأه محمد علي.. ثم أصبح ناظراً لمدرسة الألسن.

وغلبه شغفه بالترجمة.. فترجم كتباً متعددة في مجالات وعلوم مختلفة عديدة مثل الجغرافيا.. التاريخ.. وكتب في فروع علمية أخرى.

ولم يكتفِ بالترجمة.. بل وضع وألَفَ كتباً عِدة.. من أشهرها:

- «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ظهر فيه شدة انبهاره وتأثره الكبيرين بالحضارة والثقافة الفرنسية.
- «مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية»..

ولعب دوراً كبيراً في إصدار جريدة «الوقائع المصرية» وشارك في تحرير مجلة «روضة المدارس» التي تولى إصدارها «على باشا مبارك»[1] وزير المعارف.

❖❖❖

محمد الظوغلي باشا

(١) علي باشا مبارك «من مواليد مديرية الدقهلية سنة ١٨٢٣» لُقب بـ«أبو التعليم» وهو مؤرخ ومن أعمدة النهضة المصرية الحديثة.. تعلم في القاهرة وفرنسا.. وعندما عاد من فرنسا لمصر تدرج بين المناصب حتى أصبح رئيساً لديوان الأشغال والمدارس.. فبذل جهداً كبيراً في تجميل القاهرة وتطوير التعليم وتوسيعه.. وأنشأ «الكتبخانه الخديوية» اللى سُمِيَت فيما بعد بدار الكتب ودار الوثائق القومية.. ودار العلوم.. ألف كتاباً مهماً من عشرين مجلد عنوانه «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة كاستكمال لخطط المقريزى الشهيرة».. وكتب رواية واحدة هي«علم الدين».. توفي بالقاهرة في ١٤ نوفمبر ١٨٩٣.

DAYS OF MOHAMED ALI

هو أول وزير في القوات المسلحة.. كما تولى وزارة المالية في عهد محمد علي ومن أشهر وأهم الوزراء المعاونين له في تجربته.. كذلك شغل منصب رئيس وزراء مصر عام ١٨٠٨ وظل في منصبه هذا ١٥ عاماً.

اسمه الحقيقي "محمد لاظ" أما كلمة "أوغلى" فهي تعنى "ابن" أي أنه «ابن لاظ» جاء إلى مصر برفقة محمد علي في أواخر القرن الثامن عشر.. وكما سبق وقلنا كان هو صاحب فكرة مذبحة القلعة.

أُطلِقَ اسمه على واحد من أهم ميادين القاهرة أمام وزارتي العدل والداخلية ويتوسط الميدان تمثالٌ له صنعه المثال الفرنسي الشهير «جاك مار»عام ١٨٧٢ بعد أن قررت الحكومة المصرية عمل تماثيل لكبار الشخصيات في الدولة في عهد محمد علي.

وللتمثال قصة طريفة.. فبالرغم من تعدد وأهمية المناصب التي تولاها لاظوغلي إلا أنه لم يكن يهتم بذكر اسمه أو تمجيد أعماله وإنجازاته إلى درجة أوقعت المثال الفرنسي في مشكلة كبيرة حيث لم يجد له صورة واحدة يصنع منها التمثال.. فأخذ يبحث مستعيناً بأحد أصدقاء لاظوغلى عن شخص يشبهه تماماً واستمر البحث طويلاً حتى تم العثور على سقاء يحمل قربة بها ماء يشبه لاظوغلى إلى حد مدهش.. فصنعوا له ملابس تشبه ملابس رئيس الوزراء ووقف الرجل البسيط الفقير وقفة الأمراء لأول وآخر مرة في حياته وقام المثال بصنع التمثال متخذاً من السقاء بديلاً عن لاظوغلى باشا.

❖❖❖